المجلة العربية للتيار الماركسي الأممي

# الحرية والشيوعية

مجلة فصلية

العدد 14

# لينين

## بعد 100 عام

العدد الرابع عشر * فبراير/شباط 2024 * 5 دولار * السعر التضامني 5 دولار * https://www.marxy.com

# PEN.

РЕУРІХ

КВАСНРІМ

المجلة العربية للتيار الماركسي الأممي
الحرية والشيوعية
مجلة فصلية
العدد 14

**مرحبا بكم في عدد خاص جدا من مجلة "الحرية والشيوعية" والذي تم إعداده بالتعاون مع المجلة الأممية المتعددة اللغات "الدفاع عن الماركسية".**

تصادف هذه السنة الذكرى المئوية لوفاة أحد أعظم الثوريين في التاريخ: فلاديمير إليتش لينين. ولهذا فإننا خصصنا هذا العدد لحياته وافكاره للتراث الخالد لهذا المفكر العظيم.

**للتواصل مع التيار الماركسي الأممي في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، يمكنكم مراسلتنا على العناوين الآتية:**

**البريد الإلكتروني لموقع ماركسي:**
contact@marxy.com

**بريد موقع الدفاع عن الماركسية:**
contact@marxist.com

**مجلة الشيوعية والحرية:**
communismliberty@marxy.com

**زوروا مواقعنا:**
www.marxy.com
www.marxist.com/arabic.htm

**وصفحاتنا على مواقع التواصل الاجتماعي:**

**فايسبوك:**
https://www.facebook.com/marxycom

**تويتر:**
https://twitter.com/marxycom

**انستغرام:**
https://www.instagram.com/marxy.imt

لينين: بعد 100 عام ص: 06
معركة لينين الأخيرة ص: 17
لينين والنضال ضد "الأوبلوموفية" من أجل الممارسة الثورية ص: 39
كيف درس لينين هيغل ص: 28
لينين: مهام جديدة وقوى جديدة ص: 49
نضال تروتسكي من أجل تجديد شباب الحزب البلشفي ص: 43

الحرية والشيوعية صحيفة تصدر عن التيار الماركسي الأممي، صدر العدد الأول عام 2012 وتوقفت عن الصدور عام 2014 ، ثم استأنفت صدورها من جديد منذ عام 2020. لتحميل الأعداد السابقة اضغط على الصور.

# افتتاحية العدد

# لينين: بعد 100 عام

يصادف تاريخ 21 يناير 2024 الذكرى المائوية لوفاة فلاديمير إيليتش أوليانوف، المعروف باسم لينين، الذي كان بلا شك واحدا من أعظم الثوريين في التاريخ على الإطلاق. ومن خلال قيادته للحزب البلشفي، قام هذا الرجل الاستثنائي بتغيير مسار التاريخ حرفيا.

لقد كرس لينين حياته بأكملها للنضال من أجل تحرر الطبقة العاملة، والذي بلغ ذروته بانتصار ثورة أكتوبر 1917، وهو الحدث الذي أوضحت روزا لوكسمبورغ أهميته بشكل بارع حين قالت:

«كل ما يمكن للحزب أن يقدمه من شجاعة وبُعد نظر ثوري وثبات في اللحظة التاريخية، قد قدمه لينين وتروتسكي والرفاق الآخرون بجدارة. لقد جسد البلاشفة كل الشرف الثوري والمقدرة اللذان كانت تفتقر إليهما الاشتراكية الديمقراطية في الغرب. لم تكن انتفاضة أكتوبر التي قاموا بها بمثابة إنقاذ فعلي للثورة الروسية فحسب؛ لقد كانت أيضا إنقاذا لشرف الاشتراكية الأممية»[1].

فلأول مرة في التاريخ، باستثناء الحدث البطولي لكن القصير الذي مثلته تجربة كومونة باريس، تمكنت الطبقة العاملة من الاستيلاء على السلطة والاحتفاظ بها. ولهذا السبب يمكن اعتبار ثورة أكتوبر أعظم حدث في التاريخ. ومهما كانت التطورات التي حدثت لاحقا فقد شكلت انتصارا لا يمكن إنكاره أو محوه.

وهذا هو السبب في أن لينين قد أصبح أكثر الأشخاص المكروهين من طرف الطبقة السائدة والمدافعين عنها، وأكثر الأشخاص عرضة للافتراءات.

## الافتراءات

في حين أنه من الممكن في بعض الأحيان أن نجد المعلقين البرجوازيين يثنون على ماركس لما قام به في دراسة الرأسمالية، على الرغم من أنهم يرفضون بالطبع استنتاجاته الثورية، فإن لينين محكوم عليه باللعنة الكاملة. وبطبيعة الحال لا ينبغي لهذا أن يفاجئنا.

فمثلما تعرضت الثورة الفرنسية لهجمات بذيئة من قبل الصحافة الإنجليزية الحقيرة في ذلك الوقت، نجد الأقلام المأجورة للرأسمالية تدين لينين والثورة الروسية. هدفهم هو تشويه سمعتهما ومحو أهميتهما الحقيقية من التاريخ. لقد كانت هذه هي مهمة هؤلاء المأجورين منذ أكثر من قرن إلى حدود الآن.

ولذلك فقد تم تصوير لينين على أنه "ديكتاتور" و"عميل ألماني"، و"عميل قيصري"، و"قيصر جديد"، واتهم أيضا بأنه سبب صعود ستالين والستالينية. وقائمة الافتراءات لا تنتهي.

القصص التي ينشرونها مضحكة للغاية لدرجة أنها تجعلك تحمر خجلا عند قراءتها. هناك المئات من هؤلاء الجهلة الذين يطلق عليهم اسم "مؤرخين"، والذين يغنون جميعهم نفس الترنيمة وجميعهم يرددون نفس الادعاءات السخيفة والمروعة حول لينين. القليل منهم من يستحق القراءة، هذا إن وجد أصلا. حتى أكثر تلك الكتابات "اعتدالا" تنضح بالسم.

«لقد تأسست البلشفية على أساس كذبة، وشكلت سابقة كان من المقرر اتباعها على مدى التسعين عاما التالية. لم يكن لدى لينين وقت للديمقراطية، ولم تكن لديه ثقة في الجماهير ولم يكن يتردد في استخدام العنف. لقد أراد حزبا صغيرا محكم التنظيم ومنضبطا بشكل صارم مشكلا من ثوريين محترفين متشددين، يطبقون حرفيا ما يُطلب منهم»[2]. هذه عينة مأخوذة من القلم المسموم لأنطوني ريد في كتابه "العالم يحترق".

بينما يقول ريتشارد بايبس، في قصة رعب كتبت لتخويف أصحاب الأعصاب الهشة: «هنا تكمن بذور الحكم عن طريق الإرهاب، والطموح الشمولي للسيطرة الكاملة على الحياة العامة والرأي العام»[3].

في حين يكتب فيجيس، الذي يحرص على ألا يتفوق عليه الآخرون: «كان لينين أول رئيس حزب حديث يصل إلى مرتبة

إلـه: أمـا سـتالين وموسـوليني وهتلـر ومـاو تـسي تونـغ فجميعهـم كانـوا مجـرد خلفـاء لـه بهـذا المعنـى»[4].

هـؤلاء المشـعوذون المتخمـون الذيـن يتقاضـون أجـورا جيـدة لـن يستسـلموا أبـدا. وستسـتمر حمـلات أكاذيبهـم حتـى تتـم الإطاحـة بالرأسـمالية نفسـها. يجـب أن نتركهـم لعملهـم القـذر، مثـل السـاحرات في مسرحيـة ماكبـث.

لكـن وعـلى الرغـم مـن كل الجهـود التـي يبذلونهـا لبـث الارتبـاك في عقـول الشـباب ضـد لينـين والبلشـفية، فـإن الأمـور لا تسـير كـما خططـوا لهـا. لقـد بـدأ النـاس يشـككون في "السرديـة" الرسـمية، كـما هـو الحـال مـع معظـم الأشـياء الأخـرى. ولسـوء حـظ أقـلام البرجوازيـة المأجوريـن، فـإن هراءهـم المناهـض للشـيوعية لا يعمـل كـما ينبغـي!

وكـما اعـترف البروفيسـور أورلانـدو فيجيـس عـلى مضـض فـإن «أشـباح عـام 1917 لم تختـف بعـد»[5]. وبالنظـر إلى طبيعة المرحلـة التـي دخلناهـا فإنهـا لسـوء حظـه لـن تختفـي.

## منارة أمل

هـذه مرحلـة اضطرابـات غـير مسـبوقة. الرأسـمالية باعتبارهـا نظامـا اجتماعيـا واقتصاديـا قـد اسـتنفدت نفسـها، وبـدأ عـشرات الملايـين مـن النـاس عـلى المسـتوى العالمـي يشـككون في شرعيتهـا. ونتيجـة لذلـك فإنهـم يبحثـون بنشـاط عـن وسـيلة للخـروج مـن هـذا المـأزق. لكـن الأحـزاب القديمـة فقـدت مصداقيتهـا بشـكل متزايـد، وأصبـح الملايـين سـاخطين بشـكل كامـل عـلى الإصلاحيـين المخادعـين مـن جميـع الأنـواع والذيـن كل مـا يريدونـه هـو فقـط "إصـلاح" النظـام إلى هـذا الحـد أو ذاك. تشـبه سياسـتهم مطالبـة النمـر بتغيـير طبيعتـه أو محاولـة تجفيـف المحيـط باسـتعمال ملعقـة.

يـبرز لينـين كعمـلاق عـلى عكـس قـادة الحركـة العماليـة الإصلاحيـين، سـواء اليمينيـين منهـم أو اليساريين، الذيـن قبلـوا عمليـا بالنظـام الرأسـمالي. والذيـن هـم مثلهـم مثـل البرجوازيـين، ينظـرون إلى لينـين إمـا برعـب، أو في أحسـن الأحـوال باعتبـاره ببسـاطة شـخصا "تجـاوزه الزمـن"، وصـارت أفـكاره بـدون قيمـة أو أهميـة.

لكـن ليـس مـن السـهل التخلـص مـن لينـين وأفـكاره. "إن المذهـب الماركـسي قـوي لأنـه صحيـح" عـلى حـد تعبـيره. إنـه «نظـرة متكاملـة إلى العـالم لا يمكـن التوفيق بينهـا وبـين أي شـكل مـن أشـكال الخرافـة أو الرجعيـة أو الدفـاع عـن الاضطهـاد البرجـوازي»[6].

إنهـا نظريـة لتغيـير العـالم، حيـث النظريـة والممارسـة ليسـتا منفصلتـين، بـل تشـكلان كلا موحـدا. ولذلـك فقـد عمـل لينـين، المناضـل الماركـسي الحقيقـي، عـلى تكريـس كل حياتـه لانتصـار الثـورة الاشـتراكية العالميـة. وهـو، في هـذا الصـدد، يـبرز كمنـارة للعـمال ذوي الوعـي الطبقـي في كل مـكان.

هنـاك اليـوم اهتـمام متزايـد بلينـين وأفـكاره، وهنـاك محاولـة، خاصـة مـن قبـل العديـد مـن الشـباب، لإعـادة اكتشـاف البرنامـج الحقيقـي للينينيـة والبلشـفية. إن هـذا الاهتـمام إلى جانـب الأزمـة العميقـة للنظـام الرأسـمالي يؤكـدان أهميـة لينـين هنـا والآن.

## البلشفية

وقف لينين على أكتاف ماركس وإنجلز، ووضع أفكارهما موضع التنفيذ. إن اللينينية هي ببساطة الماركسية في عصر الإمبريالية، عصر الثورات والثورات المضادة.

ونظرا لطبيعة النضال القاسي ضد النظام الرأسمالي القديم، فقد أكد لينين على الحاجة الماسة لبناء حزب منضبط وقوي من الناحية النظرية. لقد كان ثوريا بهذه الرؤية وكان زعيما للحزب الأكثر شجاعة، القادر على حمل أفكاره وأفعاله إلى نهايتها المنطقية. وقد دمج مصيره مع مصير الحزب البروليتاري وأهدافه.

ونظرا لخيانة القادة الاشتراكيين الديمقراطيين القدامى، فقد كان من الضروري بناء قيادة ثورية جديدة. وهذا يعني أنه كان لا بد من تشكيل أحزاب شيوعية جديدة لتنظيم نضال الطبقة العاملة للاستيلاء على السلطة. وعلى النقيض من الأحزاب الإصلاحية القديمة، التي أصبحت إلى حد كبير مجرد آلات انتخابية، فإن الأحزاب الجديدة سوف تكون على غرار الحزب البلشفي، سواء من حيث التنظيم أو النظرة الثورية.

أوضح لينين في كتابه "مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية" أن «النموذج الروسي هو الذي يكشف لجميع البلدان، في اللحظة الحالية من التاريخ، شيئا -وشيئا مهما للغاية- عن مستقبلها القريب والحتمي»[7].

«إن تاريخ البلشفية خلال كامل فترة وجودها هو وحده القادر على تفسير سبب قدرتها على بناء الانضباط الحديدي اللازم لانتصار البروليتاريا والحفاظ عليه في ظل أصعب الظروف»[8].

لقد تمكن الحزب البلشفي من لعب مثل هذا الدور، نظرا لتاريخه الفريد ودور لينين، مثلما يوضح هو نفسه إذ يقول:

«لقد توصلت روسيا إلى الماركسية -النظرية الثورية الصحيحة الوحيدة- من خلال المعاناة التي عاشتها على مدار نصف قرن من العذاب والتضحيات التي لا مثيل لها، والبطولة الثورية التي لا مثيل لها، والطاقة المذهلة، والبحث المخلص، والدراسة، والتجربة العملية، وخيبة الأمل، والتحقق، والفشل، والمقارنة بالتجربة الأوروبية. وبفضل الهجرة السياسية التي سببتها القيصرية، اكتسبت روسيا الثورية، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ثروة من العلاقات الأممية ومعلومات ممتازة عن أشكال ونظريات الحركة الثورية العالمية، لم يمتلكها أي بلد آخر»[9].

كان الحزب البلشفي في عهد لينين هو الحزب الأكثر ثورية في التاريخ. لقد فهم لينين أنه لا بد من بناء مثل ذلك الحزب قبل اندلاع الأحداث الثورية. فمن المؤكد أنه لا يمكن ارتجاله أو إعلانه بشكل عفوي في خضم الثورة، لأنه آنذاك سيكون قد فات الأوان. وتبين كل التجارب التاريخية أن هذا صحيح.

كان من المهم، بادئ ذي بدء، إنشاء شبكة من الكوادر الماركسية، والتي من شأنها أن تكون بمثابة إطار يمكن، في آخر المطاف، بناء حزب جماهيري حوله. وبما أن الثورة عمل جدي، فقد ناضل لينين من أجل إنشاء حزب من "الثوريين المحترفين" الذين يكرسون أنفسهم للثورة.

علاوة على ذلك فإن الحزب الثوري بحاجة إلى أن يتأسس على قاعدة النظرية الماركسية. "لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية" كما أوضح لينين في كتابه "ما العمل؟"، وهو الكتاب المخصص لبناء مثل ذلك الحزب[10]. لقد كان حارس البوابة النظرية للحزب، الذي طور تحت قيادته أخلاقه البروليتارية الخاصة به، المبنية على أساس مصالح الثورة الاشتراكية.

كان ذلك النضال من أجل النظرية الماركسية مهمة أساسية بالنسبة للينين. لذلك فقد كان دور الإيسكرا اللينينية هو الانخراط في «نضال حازم ومستمر لدعم **أساسيات** الماركسية»، والتي، كما أوضح، «وضعت مرة أخرى على رأس سلم الأولويات»[11].

ألف لينين كتابه "ما العمل؟" في فترة التراجع النظري وانتشار التحريفية داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية الروسية. وقد خصص جزءا كبيرا من كتابه لدحض حجج التيار "الاقتصادوي" الذي تخلى عن النضال السياسي باسم الدفاع عن "العفوية" والنزعة العمالوية. لكنه كان من الضروري أيضا مواجهة تأثير ما يسمى بـ"الماركسية الشرعية"، التي حاولت إفراغ الماركسية من كل محتواها الثوري.

بالنسبة للينين، كان الدفاع عن النظرية الماركسية يتطلب أكثر من مجرد تكرار للصيغ القديمة؛ كان يعني تطبيق المنهج الماركسي على الوضع الملموس. من الضروري عدم فرض النظرية على الواقع. فالواقع هو نقطة البداية. وكما حذر لينين، فإن النظرية، عندما تتحول إلى عقيدة مجردة، يمكن أن يساء استخدامها لتبرير التحريفية:

«إن الماركسية عقيدة عميقة للغاية ومتعددة الجوانب. ولذلك فلا عجب أنه يمكن دائما ايجاد قصاصات من الاقتباسات من ماركس -خاصة عندما تكون الاقتباسات غير دقيقة- بين "حجج" أولئك الذين ينفصلون عن الماركسية»[12].

وقد شدد على أن الماركسية ليست عقيدة هامدة أو عقيدة جاهزة وغير قابلة للتغيير، بل هي دليل حي للعمل.

وهـذا يعنـي أنـه مـن الـضروري ربـط الأفكار الماركسية بالوضع الحقيقي، وعدم الانخـراط في النقاشـات الخياليـة. كان يـردد دائمـا أن "الحقيقـة ملموسـة". وكان الاختبـار الكبـير للثوريـين هـو ربـط هـذه الأفـكار بالحركـة الحقيقيـة للطبقـة العاملـة. وبهـذه الطريقـة يمكنهـم كسـب الدعـم وتحقيـق النتائـج.

## المرونة

**لقـد كان لينين دائمـا حازمـا فـيما يتعلـق بالمبـادئ، لكنـه كان مرنـا للغايـة فـيما يتعلق بالتنظيـم والتكتيـكات. وكانـت هـذه إحـدى أعظـم نقـاط قوتـه. لقـد فهـم أن بنـاء حـزب شـيوعي حقيقـي، كما هـو الحـال مـع الحـزب البلشـفي، ليـس خطـا مسـتقيما. إن كسـب تأييـد الـعمال، وخاصـة أولئـك الذيـن مـا زالـوا تحـت تـأثير الأحـزاب الإصلاحيـة، يتطلـب تكتيـكات مرنـة. ولم تكـن تلـك مسـألة ثانويـة. وفي كتابـه الرائـع، مـرض اليسـارية الطفـولي في الشـيوعية أوضـح أنـه**

**«لا ينقصنـا سـوى شيء واحـد لتمكيننـا مـن المضي قدمـا بثقـة وثبـات أكبر نحـو الـنصر، وهـو الوعـي العـام والشـامل لجميـع الشـيوعيين في جميـع البلـدان بضرورة إظهـار أقصى قـدر مـن المرونـة في تكتيكاتهـم»**[13].

طور لينين "إحساسا" عظيما بالموقف وكان قادرا على تقييم الأمور كلما كان هناك تحول حاد في الأحداث. كان قادرا على التمييز بين ما هو أساسي وما هو ثانوي.

وكما أوضح تروتسكي فقد «كانت موهبة لينين الخاصة، التي امتلكها إلى أعلى درجة، هي أنه من خلال نظرته الثورية الحادة، كان يستطيع أن يرى ويشير للآخرين إلى ما هو الأكثر أهمية، والأكثر ضرورة، والأكثر جوهرية. وهؤلاء الرفاق الذين أتيحت لهم، مثلي، الفرصة لمراقبة نشاط لينين وطريقة عمل عقله عن كثب، لم يكن بوسعهم إلا أن يعجبوا بحماس -أجل، أكرر، يعجبوا بحماس- ببعد نظره وحدة فكره الذي رفض كل ما كان خارجيا عرضيا سطحيا، ويصل إلى جوهر الأمر ويستوعب أساليب العمل الأساسية. تتعلم الطبقة العاملة ألا تقدر سوى أولئك القادة الذين، بعد أن يفتحوا طرقا جديدة، يمضون قدما بتصميم حتى لو كانت تحيزات البروليتاريا تعوق تقدمهم مؤقتا»[14].

كان لينين قادرا، قبل كل شيء، على التكيف ببصيرة مع التغيرات التي تحدث. وهذا يستلزم عادة تغييرا في التكتيكات لتتوافق مع الاحتياجات الجديدة للوضع. ومرة أخرى لم تكن تلك التغييرات واضحة دائما، وكانت تؤدي أحيانا إلى جدالات حادة داخل الحزب. لم يكن من قبيل الصدفة أن تُعرف البلشفية بأنها مدرسة للضربات القوية.

فعند كل مرحلة من مراحل تطور الحزب، انطلاقا من الحلقات الأولى للعمل السري إلى العمل الجماهيري عام 1905، وحتى عام 1917 وما بعده، كان على لينين أن يتغلب على مقاومة أولئك الذين تشبثوا بأساليب الماضي. كان يقابل عموما بمقاومة شديدة عند كل تغيير مقترح للتكتيكات. وكان سبب تلك المقاومة هو أن حياة الحزب تطور دائما نوعا من الروتين. وعندما يتغير الوضع، تتعارض هذه الروتينية مع المتطلبات الجديدة. وهناك الكثير من الامثلة على هذا.

إن محاولة لينين إضفاء الطابع الاحترافي على عمل حزب العمال الاشتراكي الديمقراطي الروسي، في مؤتمره الثاني عام 1903، حيث حاول إبعاد الحزب عن عقلية "الحلقات الصغرى" التي تغيب فيها الرسمية، التي كانت سائدة في بدايات الحركة، أدت في الواقع إلى الانقسام بين البلاشفة والمناشفة.

طرحت ثورة 1905 تحديات جديدة. ومن أجل الاستفادة من الظروف المتاحة، حاول لينين القطع مع أساليب العمل السري. وهذا ما جعله يدخل في صراع مع "أعضاء اللجان"، الذين هم ثوريون مخلصون نشأوا في ظل ظروف العمل السري، التي شكلت نظرتهم. لذلك عندما انفتح الوضع أمام إمكانية العمل الشرعي، وجدوا صعوبة في التكيف وأصبحوا عائقا. وقد أدى ذلك إلى مواجهة قوية.

لكن لينين لم يكن مستعدا للتنازل. تتطلب الفرص الجديدة تغييرا في اسلوب العمل. ولذلك كان عليه أن يخوض معركة مع أعضاء اللجان وأساليبهم. لقد كان الوقت قد حان لفتح أبواب الحزب! وقد عبر لينين عن ذلك بأقوى الكلمات:

«نحن بحاجة إلى قوى شابة. أنا أؤيد إطلاق النار فورا على أي شخص يفترض أنه لا يوجد أشخاص يمكن العثور عليهم. الناس في روسيا كثيرون؛ كل ما يتعين علينا القيام به هو كسب الشباب على نطاق أوسع وبجرأة أكبر، بجرأة أكبر وعلى نطاق أوسع، ومرة أخرى على نطاق أوسع ومرة أخرى بجرأة أكبر، **دون خوف منهم**. هذا وقت الحرب. إن الشباب -الطلاب، وخاصة العمال الشباب- سوف يقررون نتيجة النضال برمته. تخلصوا من كل العادات القديمة المتمثلة في عدم الحركة، واحترام الرتب، وما إلى ذلك. قوموا بتكوين **مئات** الحلقات من الفبريوديين بين الشباب وشجعوهم على العمل بأقصى طاقتهم...»[15].

وطالب لينين القادة البلاشفة بالتخلص من الروتين القديم ووضع المنظمة في حالة استنفار. وإذا لم يحصل الأمر كذلك، فسوف يكون هناك خطر حقيقي يتمثل في إهدار الفرص الجديدة التي تنفتح أمام الحزب. ومرة أخرى دعا لينين إلى التحرك قائلا:

«يجب عليكم فقط أن تتأكدوا من التنظيم، وتنظيم **مئات** الحلقات، مما يدفع تماما إلى الخلف بحماقات اللجنة (الهرمية) المعتادة حسنة النية. هذا وقت الحرب. إما أن تنشئوا منظمات قتالية **جديدة**، شابة، نشيطة، في كل مكان من أجل العمل الاشتراكي الديمقراطي الثوري من جميع الأنواع وبين جميع الفئات، أو أنكم ستغرقون وأنتم تتوشحون بهالة بيروقراطيي "اللجان"»[16].

لقد امتدت المقاربة الروتينية لبعض القادة البلاشفة إلى موقفهم من السوفييتات التي كانت قد تشكلت حديثا. ظهرت السوفييتات بشكل عفوي بمبادرة من العمال في خضم النضال، والتي كانت عبارة عن لجان إضراب موسعة. وسرعان ما أصبحت سلطة بديلة لسلطة النظام القيصري.

وبدلا من أن يقوم القادة البلاشفة القدامى باحتضان هذه التشكيلات الطبقية الجديدة، اعتبرها بعضهم أجهزة

> **"كان لينين يعتبر السوفييتات "جنينا لحكومة عمالية" ، وهو ما تأكد في أحداث عام 1917، مما أثبت بعد نظره. "**

منافسة للحزب. لقد تبنوا موقفا عصبويا متطرفا. تطلب الأمر تدخل لينين بشكل شخصي لتصحيح ذلك الخطأ. كان لينين يعتبر السوفييتات "جنينا لحكومة عمالية"[17]، وهو ما تأكد في أحداث عام 1917، مما أثبت بعد نظره

في عام 1905، تحول الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي، الذي كان يتكون آنذاك من المناشفة والبلاشفة، إلى حزب جماهيري. وقد أظهر ذلك الإمكانات الهائلة التي يتضمنها الوضع، لكنه لم يستمر.

فتحت هزيمة ثورة 1905 فترة ردة رجعية دموية في روسيا. تعرضت الحركة لانتكاسة كبيرة. وأدى ذلك بدوره إلى هروب الكثير من الأعضاء من الحزب، وخاصة من بين الفئات البرجوازية صغيرة التي لم تستطع تحمل الضغط. كان الجو داخل الحزب سيئا للغاية وتحول البلاشفة إلى ما يشبه صَدَفة فارغة.

كانت هناك الكثير من المشاكل خلال سنوات الردة الرجعية تلك. واضطر لينين إلى القطع، من جهة، مع أولئك الذين استسلموا لمزاج اليأس وانحرفوا نحو اليسارية المتطرفة، مثل أولئك البلاشفة الذين أصروا على مقاطعة انتخابات مجلس الدوما بعد فترة طويلة من هزيمة الثورة، ومع أولئك الذين أرادوا حل الحزب بالكامل ("التصفويون") من جهة أخرى.

ومرة أخرى، كان على لينين أن يدخل في صراع على المستوى النظري، ضد أولئك الذين كانوا يحاولون مراجعة المبادئ الفلسفية الأساسية للحركة الماركسية، بما في ذلك المادية نفسها. كانت هذه هي الفترة التي كتب فيها لينين كتابه "المادية والنقد التجريبي"، للجدال ضد ذلك التيار في الحركة الماركسية الروسية الذي كان يبتعد عن المادية الديالكتيكية ويتجه نحو الفلسفة المثالية الذاتية

بعد ثورة 1905، كانت هناك على الصعيد التنظيمي، محاولات لدمج الفصيلين المنشفي والبلشفي. لكن الخلافات السياسية المتزايدة حالت دون ذلك. كان المناشفة ينظرون إلى الليبراليين باعتبارهم القوة التي ستقود الثورة، بينما كان البلاشفة ينظرون إلى العمال والفلاحين الفقراء. وفي النهاية، انفصلا عن بعضهما، وتم تشكيل الحزب البلشفي رسميا في أبريل 1912.

## إعادة تسليح الحزب

لقد تم خلق الأسطورة القائلة بأن لينين حكم الحزب البلشفي بعصا من حديد، لكن من الواضح أن الأمر لم يكن كذلك. كانت هناك أوقات عديدة كان فيها لينين في موقع الأقلية، حتى داخل القيادة. لم تكن سلطة لينين مبنية على التلويح بالعصا الغليظة، بل على سلطته السياسية المبنية على الشرح الصبور.

عندما واجه لينين ثورة فبراير عام 1917، لم تجد التكتيكات الجديدة التي دافع عنها سوى القليل من الدعم.

أدت الثورة إلى الإطاحة بالقيصر وتشكيل حكومة مؤقتة مكونة من ممثلين للبرجوازية. وفي الوقت نفسه، أنشأ العمال الروس السوفييتات على نطاق أوسع مما كان عليه الحال في عام 1905. كان القادة البلاشفة داخل روسيا -وخاصة كامينيف وستالين- فاقدين للبوصلة في خضم الثورة وتأثروا بمشاعر "الوحدة" التي سادت في أيامها الأولى. ونتيجة لذلك، اتخذوا موقفا خاطئا تماما تجاه الحكومة المؤقتة. وبدلا من معارضة الحكومة، قدموا لها "دعما نقديا"، بما في ذلك دعمهم للحرب الإمبريالية.

كان لينين غاضبا. وبينما كان ما يزال يحاول مغادرة سويسرا إلى روسيا، كتب سلسلة من المقالات -"رسائل من بعيد" الشهيرة، والتي شكلت أساس "موضوعات أبريل" الشهيرة- حيث عارض الحكومة المؤقتة الرأسمالية ودعا إلى ثورة جديدة.

كان البلاشفة قد تربوا منذ فترة طويلة على أساس منظور "ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية الثورية"، المرتبطة بفكرة إثارة ثورة اشتراكية في الغرب. وبينما اعتبرت هذه الصيغة أن الثورة المقبلة هي ثورة برجوازية لإزالة بقايا الإقطاع وتمهيد الطريق للتطور الرأسمالي، فإنها أكدت أن قيادة تلك الثورة لن تقع على عاتق البرجوازية، التي ستلعب دورا مضادا للثورة، بل على عاتق العمال والفلاحين. ومع ذلك، فقد تركت هذه الصيغة مسألة الطبقة التي ستلعب الدور القيادي في ذلك التحالف مفتوحة، باعتبارها "رقما مجهولا".

كان الموقف البلشفي يتناقض بشكل ملحوظ مع موقف المناشفة، الذين قالوا إن الثورة برجوازية وبالتالي يجب أن تقودها البرجوازية. وكان على العمال، من وجهة نظرهم، أن يلعبوا دورا داعما فقط.

بينما قام تروتسكي، من جهته، بطرح نظريته الخاصة حول "الثورة الدائمة" كمنظور للثورة في روسيا. وبينما اتفق مع البلاشفة على أن البرجوازية قوة معادية للثورة، فقد اعتقد أن الطبقة الوحيدة القادرة على قيادة الثورة هي

الطبقة العاملة، بدعم من الفلاحين الفقراء. إلا أنه عوض الحديث عن إقامة "ديكتاتورية ديمقراطية"، فقد دافع عن حكومة عمالية من شأنها أن تكتسح الإقطاع (المهام "الديمقراطية") أولا، لكنها ستنتقل بعد ذلك إلى المهام الاشتراكية. هذه الثورة الاشتراكية، بدورها، ستثير الثورة في الغرب، التي ستهب لمساعدة العمال الروس. وهذا ما يعطيها طابعها "الدائم".

كان الموقف الذي طرحه لينين في أبريل 1917 مطابقا من حيث الجوهر لموقف تروتسكي. إلا أن القادة "البلاشفة القدماء" قاوموا هذا الأمر، وتمسكوا بالصيغة الأصلية المتمثلة في "الدكتاتورية الديمقراطية".

اضطر لينين إلى استخدام كل سلطته السياسية لتغيير اتجاه الحزب. وبهذه الطريقة، كان عليه أن يواجه "البلاشفة القدماء" الذين اتهموه بـ "التروتسكية"!

وفي مواجهة أخطاء القادة البلاشفة، وبالنظر إلى أهمية القضايا التي كانت على المحك لم يتردد لينين في إعلان الحرب ضدهم، كتب قائلا:

«سأفضل الانفصال الفوري عن أي شخص في حزبنا، أيا كان، بدلا من تقديم التنازلات للاشتراكية الوطنية لكيرنسكي وشركاه، وللاشتراكية السلمية والكاوتسكية لتشخيدزه وشركاه»[18].

وأضاف:

«يجب أن تقال الحقيقة للعمال. يجب أن نقول إن حكومة غوتشكوف-ميليوكوف وشركائهما هي حكومة إمبريالية... [يجب أن تنتقل] كل سلطة الدولة إلى أيدي الطبقة العاملة، عدوة رأس المال، وعدوة الحرب الإمبريالية، وعندها فقط سيكون لها **الحق** في المطالبة بإسقاط **جميع** الملوك **وجميع** الحكومات البرجوازية»[19].

ثم حول انتباهه إلى "البلاشفة القدماء"، فقال:

«لكننا عند هذه النقطة نسمع احتجاجا صاخبا من أشخاص يطلقون على أنفسهم بسهولة اسم "البلاشفة

القدماء». يقولون: ألم نقل دائما إن الثورة الديمقراطية البرجوازية لا تكتمل إلا من خلال "ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية الثورية"؟ هل الثورة الزراعية، التي هي أيضاً ثورة برجوازية ديمقراطية، قد اكتملت؟ أليس الحقيقة هي أنها، على العكس من ذلك، لم **تبدأ بعد**؟

جوابي هو: إن الشعارات والأفكار البلشفية قد أكدها التاريخ **بشكل عام**؛ لكن الأمور سارت في **الواقع الملموس** بشكل مختلف؛ فهي أكثر إبداعا، وأكثر غرابة، وأكثر تنوعا مما كان يتوقعه أي شخص

إن تجاهل هذه الحقيقة أو التغاضي عنها يعني اتباع هؤلاء "البلاشفة القدماء"، الذين لعبوا أكثر من مرة دورا مؤسفا في تاريخ حزبنا من خلال تكرارهم الصيغ التي تم **تعلمها عن ظهر قلب** بدون فهم، بدلا من **دراسة** السمات المحددة للواقع الجديد الحي...

إن ذلك الشخص الذي لا يتحدث **الآن** إلا عن "ديكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية الثورية" هو متخلف عن العصر، وبالتالي، فهو في الواقع قد **انتقل** إلى البرجوازية الصغيرة ضد نضال البروليتاريا الطبقي؛ ذلك الشخص يجب أن يُودع في أرشيف آثار "البلشفية" ما قبل الثورة (الذي يمكن تسميته بأرشيف "البلاشفة القدماء")...

في الوقت الحاضر، من الضروري فهم الحقيقة التي لا جدال فيها، وهي أن الماركسي يجب أن يأخذ في الاعتبار الحياة الواقعية، والحقائق الحقيقية للواقع، وألا يتمسك بنظرية الأمس، التي، مثلها مثل كل النظريات، لا تحدد في أحسن الأحوال سوى الرئيسي والعام، وبالكاد تقترب من احتضان الحياة بكل تعقيداتها

"النظرية رمادية اللون يا صديقي، لكن شجرة الحياة الأبدية خضراء".

إن التعامل مع مسألة "استكمال" الثورة البرجوازية **بالطريقة القديمة** يعني التضحية بالماركسية الحية لصالح الحرف الميت»[20].

في بداية أبريل 1917، كان لينين معزولا تماما داخل الحزب البلشفي عندما طرح المنظور الجديد للثورة الاشتراكية. لقد أصبح القادة القدماء عائقا، كما هو الحال مع أعضاء اللجان السابقين. كانت القيادية الوحيدة التي دعمته هي كولونتاي، في حين عارضه الباقون

> **"بالنسبة للينين، لم تكن ثورة أكتوبر غاية في حد ذاتها، بل كانت مجرد الطلقة الأولى في معركة الطبقة العاملة للاستيلاء على السلطة في جميع أنحاء العالم."**

لكن بقوة حجج لينين وبالخبرة التي راكمها البلاشفة على الأرض، سرعان ما تمكن من كسب أغلبية الحزب إلى صفه وتوجيه المسار نحو ثورة أكتوبر

وحتى في ذلك الوقت، في أكتوبر 1917، خلال الأيام التي سبقت الانتفاضة، واجه لينين معارضة داخل القيادة، وخاصة من جانب زينوفييف وكامينيف، اللذين ناضلا إلى جانبه لسنوات. ومرة أخرى كان عليه أن يضع سلطته السياسية

بأكملها على المحك لضمان نجاح الانتفاضة

كان كل شيء قد أعده لهذه اللحظة. "لقد تجرأوا!"، على حد تعبير روزا لوكسمبورغ. لقد وضع لينين الأفكار الماركسية موضع التنفيذ. ليس هناك ما يمكن أن نطلبه أكثر من العمال الروس. لقد كنسوا الرأسمالية والملاكين العقاريين وأنشأوا جمهورية الكادحين السوفياتية.

## الأممية

بالنسبة للينين، لم تكن ثورة أكتوبر غاية في حد ذاتها، بل كانت مجرد الطلقة الأولى في معركة الطبقة العاملة للاستيلاء على السلطة في جميع أنحاء العالم. ولم تكن هذه النزعة الأممية لأسباب عاطفية، بل نابعة من الطابع العالمي للرأسمالية، التي وضعت الأساس المادي لمجتمع جديد لا طبقي. وخلقت، على وجه الخصوص، طبقة عاملة عالمية، مهمتها التاريخية هي أن تصبح حفار قبر الرأسمالية.

على هذا الأساس المتين أقام لينين موقفا طبقيا مبدئيا بشأن اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914، في وقت كانت فيه كل أحزاب الأممية الثانية تصطف دفاعا عن طبقتها الرأسمالية "الخاصة بها". وقد توج هذا النضال من أجل الحفاظ على راية الأممية البروليتارية، والذي وجد فيه لينين نفسه في موقع أقلية صغيرة، بالإطاحة الثورية بالرأسمالية في روسيا في عام 1917، وتأسيس الأممية الشيوعية باعتبارها الحزب العالمي للثورة الاشتراكية، في عام 1919.

لم يتبن لينين قط فكرة "الاشتراكية في بلد واحد"، التي طرحها الستالينيون لاحقا. تقف تلك الفكرة على طرف النقيض مع منظوره للثورة العالمية. بالنسبة للينين، لم يكن المقصود من الثورة الروسية بناء "الاشتراكية الروسية"، وهو ما كان محض هراء في مثل تلك الظروف المتخلفة. من وجهة نظره كان الانتصار في روسيا، الذي أدى إلى إنشاء قلعة بروليتارية، نقطة انطلاق الثورة العالمية. وليس من قبيل الصدفة أنه أكد أنه بدون ثورة في الغرب، فإن الثورة الروسية محكوم عليها بالفشل.

وكما أوضح بنفسه في 29 يوليوز 1918 فإنه:

«لم يكن لدينا أبدا الوهم بأن قوى البروليتاريا والشعب الثوري في أي بلد، مهما كانت بطولية ومهما كانت منظمة ومنضبطة، قادرة على الإطاحة بالإمبريالية العالمية. لا يمكن تحقيق ذلك إلا من خلال الجهود المشتركة لعمال العالم... ولم نخدع أنفسنا أبدا بالاعتقاد بأن هذا يمكن تحقيقه من خلال جهود بلد واحد وحدها. كنا نعلم أن جهودنا ستؤدي حتما إلى ثورة عالمية، وأن الحرب التي بدأتها الحكومات الإمبريالية لا يمكن إيقافها بجهود تلك الحكومات نفسها. لا يمكن إيقافها إلا بجهود جميع العمال؛ وعندما وصلنا إلى السلطة، كانت مهمتنا... هي الاحتفاظ بتلك السلطة، بشعلة الاشتراكية تلك، بحيث يمكنها أن تنشر أكبر عدد ممكن من الشرارات لتضيف إلى نيران الثورة الاشتراكية المتصاعدة»[21].

لقد عبر لينين عن هذه الفكرة مرارا وتكرارا. لقد اعتمد بشكل كامل على نجاح الثورة العالمية، وعمل على تحقيقها.

ومع ذلك فقد أصبحت نظرية "الاشتراكية في بلد واحد" المناهضة للماركسية حجر الزاوية في الستالينية. بل، في الواقع، أصبح قبولها شرطا للعضوية في الأحزاب الشيوعية الستالينية.

في عام 1956، حدثت أزمة عميقة في صفوف الأحزاب الشيوعية في أعقاب تصريحات خروتشوف حول ستالين خلال المؤتمر العشرين. وقد تفاقم ذلك بعد سحق القوات الروسية للثورة المجرية في وقت لاحق من ذلك العام. لقد أصبح كل ما تعلمه أعضاء الحزب الشيوعي موضع تساؤل، وكان هناك الكثير من النقاش حول ماضي الحزب وأهمية الثورة الروسية.

وخلال المناقشات، عندما أثيرت اقتباسات من لينين ضد نظرية الاشتراكية في بلد واحد، كان بعض الأعضاء القياديين في الحزب الشيوعي مشوشين إلى حد أنهم شككوا في شرعية ثورة أكتوبر.

وكتبت أليسون ماكلويد، التي عملت في صحيفة ديلي وركر: «لم أجد قط أنه من الممكن (على الرغم من أنني واصلت المحاولة) إقناع أحد التروتسكيين بأن هذه الاقتباسات تثبت أن لينين **مقامر مجنون**. أي حق كان يملكه (لينين) للإطاحة بكيرينسكي، إذا لم يكن الاستيلاء على السلطة في روسيا كافيا؟ بأي حق كان له أن يخاطر بحياة الملايين من أجل ثورة في ألمانيا، والتي لم تكن لديه القدرة على إحداثها؟»[22].

أصيبت ماكلويد بالارتباك والإحباط بشكل كامل، فتركت الحزب الشيوعي في أبريل 1957، إلى جانب آلاف آخرين، بعد أن اشتغلت في ديلي وركر لمدة اثنتي عشرة سنة. لقد تعرضت، هي والعديد من الأشخاص الآخرين، للتضليل الإجرامي والكذب عليهم من قبل موسكو. ونتيجة لذلك أدار الكثيرون منهم ظهورهم للحركة الثورية.

لم يكن إيمان لينين بنجاح الثورة في ألمانيا مقامرة ميؤوس منها، كما تدعي ماكلويد. لقد كانت فرص انتصار الثورة الألمانية في عام 1923 مرتفعة للغاية. فقبل كل شيء كان الحزب الشيوعي الألماني أقوى حزب شيوعي خارج الاتحاد السوفياتي، وقد أنتجت أزمة صيف عام 1923 وضعا ثوريا. وكانت الجماهير تتطلع إلى الحزب الشيوعي الألماني لإعطاء الحل.

لكن ولسوء الحظ، لم يكن قادة

الحـزب الشـيوعي الألماني على مسـتوى تلـك المهمـة. وعندمـا ذهبـوا إلى موسـكو للحصـول على المشـورة، كان لينـين قـد صـار عاجـزا بعـد إصابتـه بجلطـات، ولم يكـن تروتسكي موجـودا. فكان الذيـن قدمـوا لهم النصيحـة هـم سـتالين وزينوفييـف، اللـذان حثـا على كبح جماح الحركة في الوقـت الـذي كان على الشـيوعيين الألمان أن يسـتعدوا لحسـم السـلطة. ونتيجـة لذلـك، ضاعـت الفرصـة، وكانـت العواقـب وخيمـة

لـو انـتصرت الثـورة الألمانيـة لكانت سـتغير مسـار تاريـخ العـالم بالكامـل. كان مـن الممكـن أن تـكسر عزلـة روسـيا السـوفياتية وتـثير أزمـة ثوريـة ضخمـة في أوروبـا. لكـن هزيمتها أدت إلى خيبـة أمـل مريـرة، خاصـة في روسـيا، الأمـر الـذي عـزز قبضـة البيروقراطيـة السـوفياتية، ووضـع بـدوره الأسـاس للسـتالينية. ونتيجـة لذلـك، أصبحـت السـتالينية عائقـا هـائلا أمـام الثـورة العالميـة، ومهـدت الطريـق لانتصار هتلـر بنظريتهـا عـن "الاشتراكيـة الفاشـية" التـي قسـمت الطبقـة العاملـة الألمانيـة. وهـو مـا أدى إلى أهـوال الحـرب العالميـة الثانيـة

لم يكـن ذلـك محتومـا. كان مـن شـأن ثـورة ناجحـة في ألمانيـا أن تقطـع مـع مثـل ذلـك التطـور. لكـن مـا كان ينقـص ألمانيـا لم يكـن هـو حـزب شـيوعي جماهيري، بـل كان ينقصهـا قـادة مـن أمثـال لينـين وتروتـسكي ليقودونـه

كان لـدى لينـين، على عكـس القـادة السـتالينيين، إيمـان هائـل بالطبقـة العاملـة وقدرتهـا على الإطاحـة بالرأسماليـة في جميـع أنحـاء العـالم. لكـن مـا كان مطلوبـا هـو قيـادة ثوريـة حقيقيـة لتوجيـه

النضـال إلى نهايتـه المنطقيـة. كان هـذا هـو الـدرس الـذي قدمتـه البلشـفية

## دفاعاً عن لينين

إن الخلـط بين رايـة لينـين الطاهـرة وبين نظـام سـتالين الدمـوي ليـس مـن مصلحـة الرأسماليـين فحسـب، بـل مـن مصلحـة السـتالينيين أيضـا، لأسـبابهم الخاصـة بهـم. ولا يمكـن أن يكـون هنـاك افتراء أبشـع مـن هـذا

كان لينـين، على الرغـم مـن دوره المحـوري، رجلا متواضعـا للغايـة، ولم يكـن يشـبه الصـورة الكاريكاتوريـة للقائـد المعصـوم التـي قدمهـا السـتالينيون عنـه. لقـد كان يـعترف بصراحـة بأخطائـه لكي يتعلـم منهـا. وبعـد ثـورة أكتوبـر كان ينظـر إلى الماضي في كـثير مـن الأحيـان ويضحـك مـن الأخطـاء و"الحماقـات" التـي ارتكبوهـا. ومـع ذلـك، فقـد ارتكـب لينـين أخطـاء أقـل مـن معظـم القـادة الآخريـن وكان قـادرا على تصحيحهـا. وهـذا مـا عـزز سـلطته. وكانـت قوتـه في أنـه لا يخـاف مـن الحقيقـة مـهما كانـت الظـروف

لينـين، وعلى عكـس الأسـطورة التـي نشرهـا السـتالينيون على مـر السـنين، لم يظهـر منـذ البدايـة مكتمـل التكويـن، مثـلما خرجـت أثينـا مـن جبين زيـوس. بالنسـبة لتلـك الصـورة السـتالينية الزائفـة، لا يوجـد مجـال لتطـور الأفـكار أو حتـى الأخطـاء. لقـد تـم تصويـر لينـين على أنـه نمـوذج مثـالي مفـارق للواقع. كان السـتالينيون بحاجـة لمثـل تلـك الشـخصية لتبريـر عصمتهـم المفترضـة. لقـد حولـوه بكليبـة إلى أيقونـة لا معنـى لهـا. لكنهـا صـورة خاطئـة تمامـا ولينـين لم يكـن كذلـك

في الواقـع، لقـد صنـع لينـين نفسـه بنفسـه. لقـد عمـل على توسـيع آفاقـه باسـتمرار، وتعلـم مـن الآخريـن، وصعـد بنفسـه كل يـوم إلى مسـتوى أعلى. لقـد اكتشـف الأفـكار الماركسـية بنفسـه وأثـرى فهمـه في كل خطـوة. لقـد أعطـى ذلـك للينـين تكوينـا لا مثيـل لـه. وهـذا مـا أعطـاه الثقـة واليـقين

لقـد كـرس حياتـه كلهـا للنضـال مـن أجـل الماركسـية وبنـاء الحـزب الثـوري. وكانـت سـنواته الأخيرة بمثابـة صراع ضـد مـرض تصلـب شرايينـه، وضـد البيروقراطيـة السـوفياتية التـي كانـت تهـدد بانحطـاط الثـورة وخطـر عـودة الرأسماليـة

ارتبـط ذلـك النضـال ارتباطـا مبـاشرا بالدفـاع عـن المبـادئ الأساسـية للماركسـية، التـي ناضـل لينـين مـن أجلهـا طـوال حياتـه. لقـد كان الموقـف الشـوفيني والازدراء الـذي تبنتـه زمـرة سـتالين في التعامـل مـع المسـألة القوميـة، وخاصـة فـيما يتعلـق بجورجيـا، هـو مـا نبـه لينـين إلى الخطـر الجسـيم المتمثـل في الانحطـاط السـياسي داخـل قيـادة الحـزب البلشـفي نفسـه

إن الذكـرى المائويـة لوفـاة لينـين تعطـي فرصـة للتأمـل في حياتـه الاسـتثنائية

ومساهماته وتعلم الدروس منها. ينبغي أن تمكننا من اكتشاف لينين الحقيقي وأفكاره. وهذا ليس لأي سبب أكاديمي، بل لإعداد أنفسنا للأحداث العظيمة الوشيكة

ما زلنا اليوم نواجه خيار الاشتراكية أو البربرية. ونظرا لإفلاس المنظمات العمالية القديمة، فإن الأزمة التي تواجه الإنسانية يمكن اختزالها في أزمة القيادة الثورية على المستوى العالمي. إن أمميتنا، التي ترتكز على أفكار لينين وغيره من المعلمين الماركسيين العظماء، تقوم بحشد القوى على الصعيد الأممي بهدف واضح هو حل هذه الأزمة.

إن دراسة لينين اليوم، في خضم هذه الأزمة العالمية، تقدم تجربة ملموسة قيمة جدا لحل المشاكل التي تواجه الطبقة العاملة في عصر الحروب والثورات هذا.

أفكار لينين، بالنسبة لنا، أشبه ما تكون بدليل للثورة العالمية. لكنها تشكل بالنسبة للكثيرين، حتى بين صفوف "اليسار" المزعوم، كتابا مغلقا. يجب علينا أن نترك جانبا هؤلاء المتشككين والكلبيين، الذين يرفضون أفكار لينين باعتبارها "قد عفا عليها الزمن".

ترتبط الشيوعية ارتباطا وثيقا باسم لينين والثورة الروسية، لكن الأحزاب الشيوعية اليوم هي "شيوعية" بالاسم فقط. لقد عانت من انحطاط كامل في ظل الستالينية. لقد تخلت منذ فترة طويلة عن أفكار لينين والبلشفية، وتبنت بدلا من ذلك وجهة نظر إصلاحية.

ينخرط الستالينيون السابقون الآن في حملة المؤرخين البرجوازيين لتشويه اسم البلشفية. أجل، يمكنهم التنديد بلينين، ويمكنهم هدم التماثيل، ويمكنهم نهب أصول الدولة، لكن هناك شيء واحد لا يمكنهم فعله: لا يمكنهم أبدا قتل فكرة آن أوانها. وهذه هي الحقيقة التي تطاردهم وتصيبهم بالكوابيس.

ومع الاهتمام المتزايد بلينين والشيوعية، يجدر بنا أن نكرر كلمات لينين نفسه التي قالها منذ 06 مارس 1919:

«يبدو أنهم خائفون بشدة من أن ينقل عشرة أو اثنتي عشرة من البلاشفة العدوى إلى العالم أجمع. لكننا، بالطبع، نعلم أن هذا الخوف مثير للسخرية، لأنهم قد أصابوا بالفعل العالم أجمع بالعدوى...»[23].

ومع أخذ هذه الأفكار في الاعتبار، علينا أن نكرس أنفسنا لهدف إعادة بناء الأممية الشيوعية على مستوى أعلى. وهذا يعني الدفاع عن أفكار لينين وبناء قوى الشيوعية الحقيقية في جميع أنحاء العالم. هذه هي مهمتنا العاجلة، بعد مرور مائة عام على وفاة لينين.

## مراجع وهوامش:


1: R Luxemburg, The Russian Revolution, Workers Age Publishers, 1940, pg 12

2: A Read, The World on Fire, W. W. Norton & Co, 2008, pg 5-6

3: R Pipes, The Russian Revolution, Vintage, 1991, pg 349

4: O Figes, A People's Tragedy, Pimlico, 1997, pg 391

5: ibid. pg 824

6: V I Lenin, "The Three Sources and Three Component Parts of Marxism", Lenin Collected Works, Vol. 19, Progress Publishers, 1973, pg 21

7: V I Lenin, "Left-Wing Communism, an infantile disorder", Lenin Collected Works, Vol. 31, Progress Publishers, 1966, pg 22

8: ibid. pg 24

9: ibid. pg 25-26

10: V I Lenin, What is to be done?, Wellred Books, 2018, pg 26

11: V I Lenin, "Certain Features of the Historical Development of Marxism", Lenin Collected Works, Vol. 17, Progress Publishers, 1974, pg 43

12: V I Lenin, "Letter to Comrades", Lenin Collected Works, Vol. 26, Progress Publishers, 1972, pg 214

13: V I Lenin, "'Left Wing' Communism: an Infantile Disorder", The Classics of Marxism, Vol. 2, Wellred Books, 2015, pg 187

14: L Trotsky, On Lenin, George G.Harrap & Co, 1971, pg 193-194

15: V I Lenin, "A Letter to Bogdanov and S.I. Gusev", Lenin Collected Works, Vol. 8, Progress Publishers, 1977, pg 143-145

16: ibid. pg 146

17: V I Lenin, "The First Stage of the First Revolution", Lenin Collected Works, Vol. 23, Progress Publishers, 1964, pg 304

18: V I Lenin, "Letter to J.S. Hanecki", Lenin Collected Works, Vol. 35, Progress Publishers, 1973, pg 310

19: ibid. pg 312

20 V I Lenin, "Letters on tactics", Lenin Collected Works, Vol. 24, Progress Publishers, 1974, pg 44-45

21 V I Lenin, "Speech at a joint session of the All-Russia Central Executive Committee, the Moscow Soviet, Factory Committees and Trade Unions of Moscow", Lenin Collected Works, Vol. 28, Progress Publishers, 1965, pg 24-25

22 A Macleod, The Death of Uncle Joe, Merlin Press, 1997, pg 212, emphasis added

23 V I Lenin, "Founding of the Communist International", Lenin Collected Works, Vol. 28, Progress Publishers, 1965, pg 481

# معركة لينين الأخيرة

**في هذه المقالة، التي كتبها آلان وودز في الأصل لتخليد الذكرى المائوية لميلاد لينين، عام 1970، يشرح آلان صعود البيروقراطية السوفياتية والنضال الذي خاضه لينين ضدها. كان لينين، خلال العامين الأخيرين من حياته السياسية النشطة، قد لاحظ بالفعل الأعراض المبكرة للانحطاط البيروقراطي في روسيا، وقد تركت كتاباته التي تعود لتلك الفترة تراثا هاما جدا للشيوعيين اليوم.**

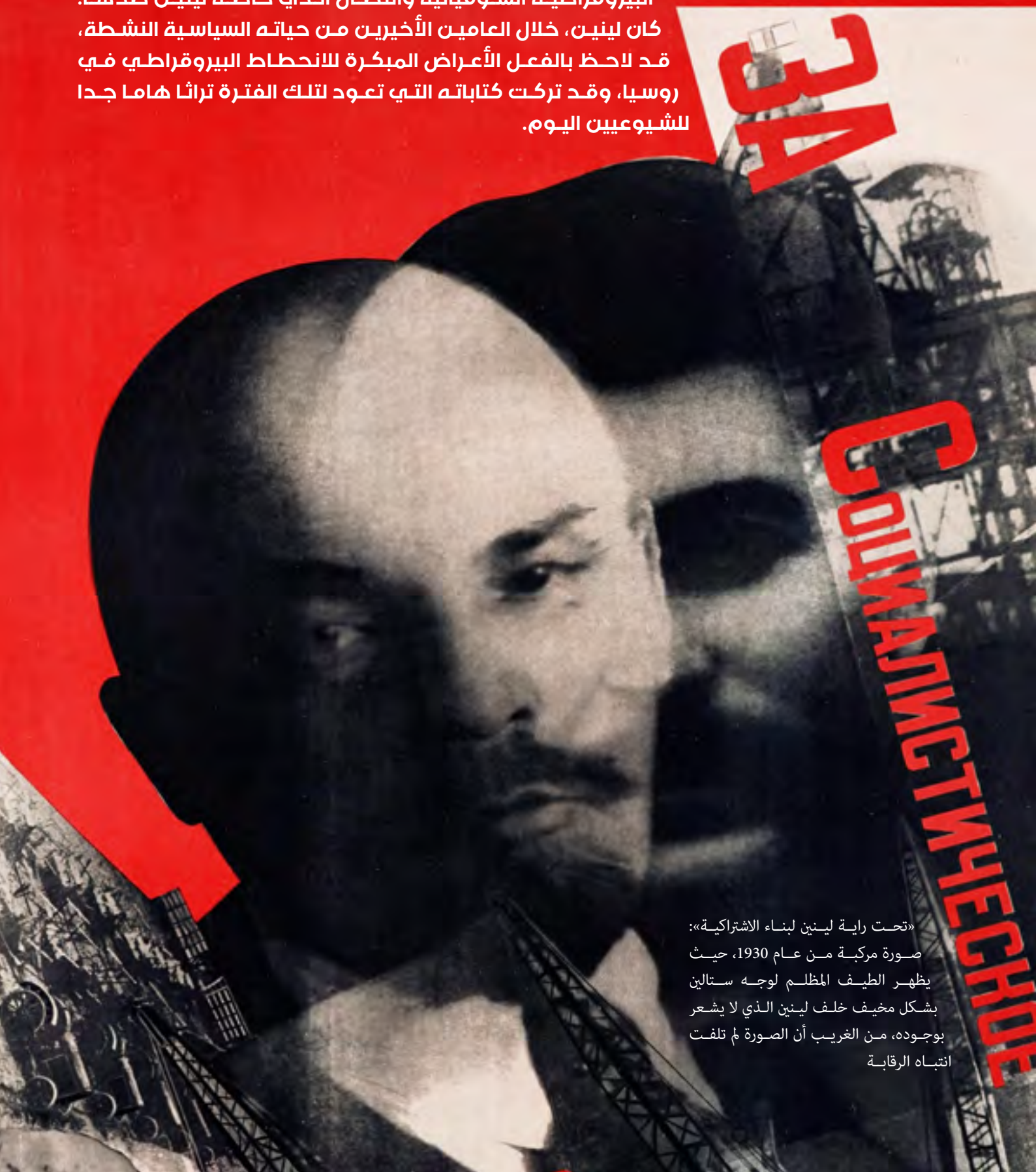


«تحت راية لينين لبناء الاشتراكية»: صورة مركبة من عام 1930، حيث يظهر الطيف المظلم لوجه ستالين بشكل مخيف خلف لينين الذي لا يشعر بوجوده، من الغريب أن الصورة لم تلفت انتباه الرقابة

خلال الفترة النشطة الأخيرة من حياته، كان لينين منشغلا بشكل رئيسي بمشاكل الاقتصاد السوفياتي في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة. ففي عام 1921، وتحت ضغط الملايين من صغار الفلاحين، اضطرت الدولة العمالية إلى التراجع عن التخطيط الاشتراكي والتصنيع، من أجل توفير الحبوب للعمال الجائعين في المدن. كان لا بد من التخلي عن الإجراءات التي طبقت خلال الحرب الأهلية، والمتمثلة في مصادرة الحبوب، وذلك من أجل استرضاء الفلاحين الذين كان دعمهم ضروريا لكي تتمكن الدولة العمالية من مواجهة الردة الرجعية. تمت استعادة السوق الحرة للحبوب، وتقديم الامتيازات للفلاحين وصغار التجار، في حين ظلت أدوات القوة الاقتصادية الرئيسية (البنوك المؤممة والصناعات الثقيلة، واحتكار التجارة الخارجية) في أيدي الدولة العمالية

لم يكن الهدف من وراء ذلك التراجع، الذي فُرض على البلاشفة، خلق مجتمع اشتراكي لا طبقي، بل إنقاذ الملايين من الموت جوعا، وإعادة بناء الاقتصاد المحطم، وتوفير المنازل والمدارس، أي جر روسيا إلى القرن العشرين

يتطلب انتصار الاشتراكية تطوير القوى المنتجة إلى مستوى لم يسبق له مثيل في أي مجتمع موجود من قبل. لا يمكن لأفكار البشر أن ترتقي إلى آفاق أسمى من النضال اليومي الطاحن من أجل البقاء إلا عندما يتم القضاء على ظروف الخصاص العام والفقر. إن الظروف اللازمة لتحقيق هذا التحول موجودة بالفعل في عالمنا اليوم. فلأول مرة في تاريخ البشرية، صار بإمكاننا أن نقول بصدق إنه لم تعد هناك ضرورة لأن يجوع أي شخص، أو أن يتشرد أي شخص، أو أن يبقى أي شخص أميا

إن الإمكانات موجودة، في العلوم والتقنيات والصناعة التي خلقها تطور الرأسمالية نفسها، والتي تعتمد على جميع موارد الكوكب، وإن بطريقة غير كاملة وفوضوية وغير متطورة. ولا يمكن تحقيق هذه الإمكانية إلا على أساس

«من النيب روسيا ستصير اشتراكية», 1921

خطة إنتاج متكاملة ومتناغمة. لكن هذا لا يمكن أن يتم إلا على أساس الملكية المشتركة لوسائل الإنتاج وخطة اشتراكية ديمقراطية

كانت هذه الحقائق الأولية للماركسية أمرا مفروغا منه بالنسبة للينين والبلاشفة. لم يقودوا العمال إلى النصر في أكتوبر 1917 بهدف "بناء الاشتراكية" داخل حدود الإمبراطورية الروسية القيصرية السابقة، بل لإطلاق الشرارة الأولى للثورة الاشتراكية العالمية. وفي هذا السياق كتب لينين في الذكرى الرابعة لثورة أكتوبر قائلا: «لقد أعطينا الانطلاقة. وليس من المهم متى أو في أي تاريخ أو وقت، أو بروليتاريا أي أمة ستكمل هذه السيرورة. الشيء المهم هو أن الجليد قد كسر؛ والطريق مفتوح، وقد تم توضيح الطريق»[1].

## عزلة الثورة

بالنسبة للينين، كانت الأهمية الأولى للثورة الروسية تكمن في المثال الذي قدمته لعمال العالم. وقد كان فشل الموجة الثورية التي اجتاحت أوروبا في الفترة ما بين 1918و1921 هو العامل الحاسم في التطورات اللاحقة. لو كانت

هناك ثورة أوروبية منتصرة، لكان من الممكن ربط الثروة المعدنية الضخمة التي تمتلكها روسيا، وقوتها العاملة الهائلة، بالعلم والتقنية والصناعة التي تمتلكها ألمانيا وبريطانيا وفرنسا. كان بوسع الولايات المتحدة الاشتراكية الأوروبية أن تغير حياة شعوب أوروبا وآسيا وأن تفتح الطريق أمام فدرالية اشتراكية عالمية. وبدلا من ذلك، ونتيجة لجبن وعدم كفاءة القادة العماليين، واجهت الطبقات العاملة الأوروبية عقودا من المصاعب والبطالة والفاشية وحربا عالمية جديدة. ومن ناحية أخرى، فإن عزلة الدولة العمالية الوحيدة في العالم في بلد فلاحي متخلف، فتح الباب أمام الانحطاط البيروقراطي والردة الرجعية الستالينية

هزيمة الطبقة العاملة الألمانية، في مارس 1921، أجبرت الجمهورية السوفياتية على الاعتماد على مواردها الخاصة من أجل البقاء. وقد أوضح لينين في خطاب ألقاه في 17 أكتوبر 1921، العواقب قائلا

«يجب أن تتذكروا أن أرضنا السوفياتية أصبحت فقيرة بعد سنوات عديدة من المحنة والمعاناة، وليس لديها جيران اشتراكيون في فرنسا أو إنجلترا ليساعدونا بتكنولوجيتهم المتطورة للغاية وصناعتهم المتطورة للغاية. ضعوا ذلك في الاعتبار! يجب أن نتذكر أن كل تقنياتهم وصناعاتهم المتطورة هي في الوقت الحالي في ملكية الرأسماليين الذين يحاربوننا»[2].

ومن أجل البقاء، كان من الضروري الاستجابة لرغبة الفلاح في تحقيق الربح، حتى ولو على حساب الطبقة العاملة وبناء الصناعة، التي هي الأساس الحقيقي الوحيد للانتقال إلى الاشتراكية

لقد مكنت الامتيازات التي منحت للفلاحين وصغار رجال الأعمال والمضاربين ("النيبمان"[3]) من الحيلولة دون الانهيار الاقتصادي في 1921-1922. تمت استعادة حركة التجارة بين المدينة والريف، ولكن بشروط غير مواتية للمدينة. أدى تخفيض الضرائب على الفلاحين إلى تقليص الأموال اللازمة للاستثمار في الصناعة. وشهدت الصناعة الثقيلة ركودا، في حين كانت معظم الصناعات الخفيفة في أيدي القطاع الخاص. وحتى ذلك الانتعاش الذي عرفته الزراعة عزز العناصر الرأسمالية، وليس الاشتراكية، في المجتمع السوفياتي. حقق الكولاك (الفلاحون الأثرياء) أرباحا ضخمة، حيث امتلكوا أكبر المزارع وأكثرها خصوبة ورأس المال اللازم للمعدات والخيول والأسمدة. في الواقع، سرعان ما أصبح من الواضح أنه في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة، كان الفرق بين الأغنياء والفقراء في القرى يتزايد بمعدل ينذر بالخطر. بدأ الكولاك في تخزين الحبوب لرفع الأسعار، حتى أنهم كانوا يشترون حبوب الفلاحين الفقراء لبيعها لهم مرة أخرى في وقت لاحق عندما ترتفع الأسعار

كان لينين يراقب هذه التطورات بقلق، وأكد مرارا وتكرارا على حاجة الطبقة العاملة إلى فرض رقابة مشددة على مفاتيح الاقتصاد. وفي المؤتمر الرابع للأممية الشيوعية، في نوفمبر 1922، طرح لينين الأمر بوضوح، حيث قال

«إن خلاص روسيا ليس مرتبطا فقط بالحصاد الجيد في مزارع الفلاحين فهذا لا يكفي؛ وليس فقط بالحالة الجيدة للصناعة الخفيفة، التي تزود الفلاحين بالسلع الاستهلاكية، فهذا أيضا لا يكفي؛ نحن نحتاج أيضا إلى الصناعات الثقيلة. ولوضعها في حالة جيدة سيتطلب الأمر عدة سنوات من العمل. الصناعة الثقيلة تحتاج إلى إعانات الدولة. فإذا لم نتمكن من توفيرها، فسوف يكون محكوما علينا بالخراب باعتبارنا دولة متحضرة، ناهيك عن دولة اشتراكية»[4].

في تلك الفترة، واجه لينين مشكلة الكهربة باعتبارها مجالا محتملا يمكن من خلاله إحداث اختراق في الجدار الصلب للتخلف الروسي. بينما كان تروتسكي منشغلا بالتخطيط الشامل من طرف الدولة للصناعة، والذي كان غائبا عمليا في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة. وشدد طوال الوقت على الحاجة إلى تعزيز مؤسسة "Gosplan" (وكالة التخطيط الحكومية)، باعتبارها وسيلة لتشجيع النهضة العامة للقطاع الصناعي المخطط. كان لينين في البداية غير واثق من الفكرة، ليس لأنه رفض التخطيط، بل بسبب آفة البيروقراطية المسيطرة في المؤسسات السوفياتية، والتي كان يخشى أن تحول الوكالة الموسعة والمعززة إلى لعبة ورقية

لكن وعلى الرغم من اختلاف مقاربتهما لهذه المسألة، فقد كان لينين وتروتسكي متفقين تماما على الحاجة

الملحة إلى تعزيز العناصر الاشتراكية في الاقتصاد وإنهاء التراجع نحو "الرأسمالية الفلاحية". ومع ذلك فقد كان الضغط الذي مارسته مصالح الكولاك شديدا إلى درجة أن قسما من القيادة البلشفية بدأ في الانحناء أمامه. مسألة الطريق الذي ستسلكه الدولة السوفياتية طرحت بشكل مباشر من خلال الجدل الذي دار حول احتكار التجارة الخارجية، والذي اندلع في مارس 1922.

## احتكار التجارة الخارجية

كان احتكار التجارة الخارجية، الذي طبق في أبريل 1918، إجراء حيويا لحماية الاقتصاد الاشتراكي ضد خطر اختراق رأس المال الأجنبي وهيمنته. وقد أصبح الاحتكار أكثر أهمية في ظل السياسة الاقتصادية الجديدة، باعتباره حصنا ضد التيارات الرأسمالية المتنامية. في أوائل عام 1922، وبناء على طلب من لينين، قام ليزافا بصياغة وثيقة بعنوان "أطروحات حول التجارة الخارجية"، والتي شددت على ضرورة تعزيز الاحتكار والإشراف الصارم على الصادرات والواردات. وعلى الرغم من ذلك، فقد حدث انقسام داخل اللجنة المركزية للحزب البلشفي، حيث عارض كل من ستالين وزينوفييف وكامينيف مقترحات لينين ودعوا إلى تخفيف الاحتكار، في حين ذهب سوكولنيكوف وبوخارين وبياتاكوف إلى حد المطالبة بإلغائه

في 15 ماي، كتب لينين الرسالة التالية إلى ستالين

الرفيق ستالين،

في ضوء ذلك، يرجى إصدار توجيه يتم تمريره عبر المكتب السياسي من خلال جمع أصوات الأعضاء مفاده أن «اللجنة المركزية تؤكد من جديد احتكار التجارة الخارجية وتقرر وضع حد في كل مكان لمسألة دمج المجلس الاقتصادي الأعلى مع مجلس مفوضية التجارة الخارجية. يجب على جميع مفوضي الشعب التوقيع بشكل سري وإعادة الأصل إلى ستالين. لا ينبغي عمل نسخ»[5].

وفي الوقت نفسه كتب إلى ستالين وإلى فرومكين (نائب مفوض الشعب للتجارة الخارجية) مؤكدا على أنه «يجب فرض حظر رسمي على جميع المحادثات والمفاوضات واللجان وما إلى ذلك فيما يتعلق بتخفيف احتكار التجارة الخارجية»[6].

لكن رد ستالين جاء مراوغا، إذ قال: «ليس لدي أي اعتراض على فرض "حظر رسمي" على التدابير الرامية إلى تخفيف احتكار التجارة الخارجية في المرحلة الحالية. لكن وعلى الرغم من ذلك، أعتقد أن التخفيف أصبح أمرا لا غنى عنه»[7].

في 26 ماي، تعرض لينين لأول وعكة صحية، مما أبعده عن النشاط حتى شهر شتنبر. في تلك الأثناء، وعلى الرغم من طلب لينين، تمت إثارة مسألة "تخفيف" الاحتكار مرة أخرى. ويوم 12 أكتوبر، قدم سوكولنيكوف قرارا في الجلسة العامة للجنة المركزية لتخفيف احتكار التجارة الخارجية. كان لينين وتروتسكي غائبين، وتم تبني القرار بأغلبية ساحقة

يوم 13 أكتوبر، كتب لينين إلى اللجنة المركزية عبر ستالين، الذي كان قد ناقش معه الأمر سابقا. احتج لينين على القرار وطالب بإثارة تلك المسألة مرة أخرى في الجلسة العامة المقبلة في دجنبر. بعد ذلك كتب ستالين إلى أعضاء اللجنة المركزية، ما يلي

«رسالة الرفيق لينين لم تقنعني بأن قرار اللجنة المركزية كان خاطئا... ومع ذلك، ونظرا لإصرار الرفيق لينين على تأجيل تنفيذ قرار الجلسة العامة للجنة المركزية، فسوف أصوت لصالح التأجيل حتى يمكن طرح المسألة مرة أخرى للمناقشة في الجلسة العامة القادمة التي سيحضرها الرفيق لينين»[8].

وفي 16 أكتوبر، تم الاتفاق على تأجيل الأمر إلى الجلسة العامة التالية. ومع ذلك، فإنه مع اقتراب موعد تلك الجلسة، أصبح لينين قلقا بشكل متزايد من أن حالته الصحية لن تسمح له بالحديث. في 12 دجنبر كتب رسالته الأولى إلى تروتسكي يطلب منه فيها أن يأخذ على عاتقه «الدفاع عن رأينا المشترك حول الضرورة غير المشروطة للحفاظ على احتكار التجارة الخارجية وتعزيزه»[9].

تشير الرسائل التي كتبها لينين بوضوح إلى الكتلة السياسية التي كانت قائمة بين لينين وتروتسكي في ذلك الوقت. إنها تظهر اقتناع لينين الضمني بقدرة تروتسكي على اتخاذ الموقف السياسي الصحيح، وهو الاقتناع الذي ولد من سنوات من العمل المشترك على رأس الدولة السوفياتية. لذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن لينين في ذلك الوقت لم يلجأ إلى أي شخص آخر للدفاع عن آرائه في اللجنة المركزية. وحتى المقربين الآخرين منه، فرومكين وستومونياكوف، لم يكونا أعضاء في اللجنة المركزية

وعندما علمت اللجنة المركزية باستعدادات لينين للنضال وتكتله مع تروتسكي، تراجعت دون مواجهة. وفي 18 دجنبر، تم إلغاء قرار أكتوبر بدون أي قيد أو شرط. فاز الفصيل اللينيني بالجولة الأولى في المعركة ضد العناصر الموالية للكولاك داخل قيادة الحزب. واستمرت المعركة بعد وفاة لينين من قبل تروتسكي والمعارضة اليسارية، الذين رفعوا وحدهم راية وبرنامج لينين عاليا في مواجهة الردة السياسية الستالينية

## خطر البيروقراطية

سبق لفريدريك إنجلز أن أوضح منذ فترة طويلة أنه في أي مجتمع يكون فيه الفن والعلم والحكومة حكرا على أقلية، فإن تلك الأقلية سوف تستغل مكانتها وتشتط في استغلالها لخدمة مصالحها الخاصة. وبسبب عزلة الثورة في بلد متخلف، اضطر البلاشفة إلى الاستعانة بخدمات مجموعة من المسؤولين القيصريين السابقين للحفاظ على سير الدولة والمجتمع. تلك العناصر، التي

جعلت الحكومة العمالية رهينة لهم في الأيام الأولى للثورة، أدركت تدريجيا أن السلطة السوفياتية لن يتم سحقها بالقوة المسلحة. وبعد انتهاء مخاطر الحرب الأهلية، بدأ العديد من أعداء البلشفية السابقين في التسلل إلى الدولة، والنقابات العمالية، وحتى الحزب

ليست هناك أية علاقة بين عملية "التطهير" الأولى، التي جرت في عام 1921، وبين المحاكمات الملفقة البشعة التي نظمها ستالين لاحقا ، والتي تم خلالها قتل القيادة البلشفية القديمة بأكملها. فخلال التطهير الأول [في عهد لينين وتروتسكي سنة 1921] لم تتم محاكمة أي أحد أو قتل أو سجن أي أحد. بل تم تشكيل لجان حزبية خاصة لطرد الآلاف من الوصوليين والبرجوازيين من صفوف الحزب، والذين كانوا قد انضموا إليه من أجل خدمة مصالحهم الخاصة. كانت الجرائم التي تم طرد هؤلاء الأشخاص بسببها هي «البيروقراطية، والوصولية، وإساءة استخدام أعضاء الحزب لوضعهم داخل الحزب أو داخل السوفييتات، وانتهاك العلاقات الرفاقية داخل الحزب، ونشر شائعات لا أساس لها ولم يتم التحقق منها، أو إطلاق تلميحات أو تقارير أخرى تنعكس سلبا على الحزب أو أعضائه، أو تحطيم وحدة الحزب ونفوذه»[10].

ومن أجل شن النضال ضد البيروقراطية، دعا لينين إلى إنشاء "مفتشية العمال والفلاحين" (RABKRIN)، باعتبارها أعلى حكم وحارس لأخلاقيات الحزب، وسلاحا ضد العناصر الغريبة في جهاز الدولة السوفياتية. وقد وضع لينين في رئاسة لجنة رابكرين، رجلا كان يحترمه لقدراته التنظيمية وشخصيته القوية: ستالين

من بين المهام المهمة التي تكلفت بها لجنة رابكرين التدقيق في اختيار وتعيين العاملين المسؤولين في الدولة والحزب. لكن من الواضح أن كل من لديه القدرة على عرقلة ترقية البعض وفتح الطريق أمام الآخرين يكون لديه سلاح يمكن أن يستعمله لخدمة مصالحه الخاصة. ولم يتردد ستالين في استخدام ذلك الموقع لصالحه. لقد تحول رابكرين من سلاح ضد البيروقراطية إلى وكر للمؤامرات الوصولية

استخدم ستالين بشكل كلبي منصبه في رابكرين، كما استغل فيما بعد سيطرته على سكرتارية الحزب، ليجمع حول نفسه كتلة من الأشخاص المنبطحين، أشخاص ولاؤهم الوحيد كان للرجل الذي ساعدهم على الصعود إلى المناصب المريحة. وهكذا انحدرت لجنة رابكرين من مرتبة حكم على أخلاقيات الحزب، إلى أدنى مستويات الكلبية البيروقراطية

كان تروتسكي قد لاحظ ما كان يحدث قبل لينين الذي حال مرضه دون إشرافه الدقيق على العمل الحزبي. وأشار تروتسكي إلى أن «العاملين في لجنة رابكرين هم في المقام الأول عمال فشلوا في مجالات أخرى»، ولفت الانتباه إلى «الانتشار الشديد للمؤامرات داخل أجهزة رابكرين التي أصبحت كلمة متداولة في جميع أنحاء البلاد»[11].

إلا أن لينين واصل الدفاع عن رابكرين ضد انتقادات تروتسكي. ومع ذلك فإنه من الواضح في أعماله الأخيرة أن عينيه كانتا مفتوحتين على خطر البيروقراطية في ذلك الجهاز ودور ستالين الذي يقوده. ففي مقالته "كيف ينبغي لنا إعادة تنظيم مفتشية العمال والفلاحين"، ربط لينين المسألة بالتشوه البيروقراطي لجهاز الدولة العمالية، وقال

«باستثناء المفوضية الشعبية للشؤون الخارجية، فإن جهاز الدولة لدينا هو إلى حد كبير موروث من الماضي، ولم يخضع لأي تغيير جدي تقريبا. لقد تم تعديله قليلا فقط على السطح، لكنه في جميع النواحي الأخرى مجرد بقايا نموذجية لآلة الدولة القديمة»[12].

ومع ذلك، فإن لينين في مقاله الأخير "من الأفضل أقل، شرط أن يكون أفضل"،

من اليسار إلى اليمين، ستالين، ريكوف، زينوفييف، و بوخارين 1924

الـذي كتبـه في 02 مـارس 1923، وجـه هجومـا لاذعـا على رابكريـن

«دعونـا نقـل بصراحـة إن المفوضيـة الشـعبية لمفتشـية الـعمال والـفلاحين لا تتمتـع في الوقـت الحـاضر بـأدنى سـلطة. يعلـم الجميـع أنـه لا توجـد لدينـا مؤسسـات أخـرى أسـوء تنظيـما مـن مفتشـية الـعمال والـفلاحين، وأنـه في ظـل الظـروف الحاليـة لا يوجـد شيء يمكـن توقعـه مـن مفوضيـة الشـعب هـذه»[13].

وفي نفـس المقـال، أدرج لينـين ملاحظـة موجهـة مباشـرة إلى سـتالين: «دعونا نقل بين قـوسين إنـه لدينـا بيروقراطيـين في مكاتـب حزبنـا وكذلـك في المكاتـب السـوفياتية الأخـرى»[14].

إن اشـارة ليـنين إلى سـتالين باعتبـاره الزعيـم المحتمـل لفصيـل بيروقراطـي داخـل الحـزب هـو دليـل على بعـد نظـره. في ذلـك الوقـت بالـذات، كانـت سـلطة سـتالين داخـل "الجهـاز" مـا تـزال غير مرئيـة للأغلبيـة حتـى مـن أعضـاء الحـزب، في حين أن معظـم القـادة لم يصدقـوا أنـه قـادر على اسـتخدامها، بالنظـر إلى مسـتوى فهمـه الهزيـل للسياسـة والنظريـة. وحتـى بعـد وفـاة لينـين، لم يكـن سـتالين، بـل زينوفييـف هـو الـذي تـرأس "الترويـكا" (زينوفييـف، كامينيـف، سـتالين)، التـي دفعـت الحـزب في الخطـوات الأولى المصيريـة بعيـدا عـن تقاليـد أكتوبـر، تحـت سـتار الهجـوم على "التروتسـكية"

ولم يكـن مـن قبيـل الصدفـة أن نصيحـة لينـين الأخيرة للحـزب كانـت هـي تحذيـره مـن إسـاءة اسـتخدام سـتالين "غير المخلص" و"المتعصـب" للسـلطة والدعـوة إلى إقالتـه مـن منصـب الأمين العـام

## المسألة الجورجية

أعطـت هزيمـة الثـورة العماليـة الأوروبيـة أهميـة أكبر لعمـل الأمميـة الشـيوعية مـن أجـل ثـورة شـعوب الشرق المسـتعبدة. لقـد أعطـت ثـورة أكتوبـر زخما قويـا لنضـال المسـتعمرات ضـد مضطهديهـا الإمبريالـيين. وعلى وجـه الخصـوص، كان شـعار "حـق الأمـم في تقريـر المـصير"، الـذي يرصـع رايـة البلشـفية، يحمـس ملايين المضطهديـن في آسـيا وأفريقيـا

كان أول عمـل تقـوم بـه الحكومـة العماليـة تقريبـا هـو الاعتراف باسـتقلال فنلنـدا، على الرغـم مـن أن ذلـك كان يعنـي حـتما منـح الاسـتقلال لحكومـة رأسماليـة معاديـة. إن الماركسـيين يدافعـون بثبـات، بطبيعـة الحـال، عـن توحيـد جميـع الشـعوب في فدراليـة اشتراكيـة عالميـة. لكـن مثـل تلـك الوحـدة لا يمكـن تحقيقهـا بالقـوة، بـل فقـط بالموافقـة الحـرة للعمال والـفلاحين مـن مختلـف البلـدان. عندمـا يسـتولي عمال أمـة إمبرياليـة سـابقة على السـلطة، يكـون مـن واجبهـم احترام رغبـات شـعوب المسـتعمرات السـابقة، حتـى ولـو كانـت ترغـب في الانفصـال. ويمكـن تحقيـق التوحيـد لاحقـا، على أسـاس إعطـاء المثـال والإقنـاع

في عـام 1921، اضطـر الجيـش الأحمـر إلى التدخـل في جورجيـا، حيـث كانـت الحكومـة تتآمـر باسـتمرار مـع بريطانيـا والقـوى الرأسماليـة الأخـرى ضـد الدولـة السـوفياتية. كان ليـنين حريصـا للغايـة على ألا يُنظـر إلى هـذا العمـل العسـكري على أنـه محاولـة لضـم جورجيـا مـن قبـل روسـيا، وبالتـالي ربـط الدولـة السـوفياتية بالمضطهِديـن القـيصريين القدامـى. لقـد اسـتمر يكتـب الرسـائل واحـدة تلـو الأخـرى ينصـح فيهـا أوردجونيكيـدزه، ممثـل اللجنـة المركزيـة الروسـية في جورجيـا، باتبـاع «سياسـة التنـازلات فـيما يتعلـق بالمثقـفين الجورجـيين وصغـار التجـار»، ويدعـو إلى إنشـاء «تحالـف مـع جوردانيـا أو أمثالـه مـن المناشـفة الجورجـيين»[15]. في 10 مـارس، أرسـل برقيـة يحـث فيهـا على ضرورة «إبـداء احترام خـاص للهيئـات السـيادية في جورجيـا؛ وإيلاء اهـتمام وحـذر خـاصين فـيما يتعلـق بالسـكان الجورجـيين»[16].

لكـن أنشـطة أوردجونيكيـدزه في جورجيـا كانـت مرتبطـة بزمـرة سـتالين داخـل الحـزب. كان سـتالين يعمـل على مقترحـات توحيـد الاتحـاد السـوفياتي الاشتراكي الـروسي مـع بقيـة الجمهوريـات السـوفياتية الأخـرى غير الروسـية. وفي غشـت 1922، بينـما كان لينـين عاجـزا عـن العمـل، تـم تشـكيل لجنـة كان سـتالين هـو الشـخصية القياديـة فيهـا، لوضـع شروط التوحيـد

عندمـا ظهـرت أطروحـات سـتالين، تـم

ستالين و أوردزونيخيدزة بتبليسي، جورجيا 1925

رفضها بشدة من قبل اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجورجي. وفي 22 شتنبر، أقر القادة الشيوعيون البلاشفة في جورجيا الاقتراح التالي

«إن الاتحاد في شكل حكم ذاتي للجمهوريات المستقلة، المقترح على أساس أطروحات ستالين سابق لأوانه. إن اتحاد الجهود الاقتصادية والسياسة المشتركة ضروري، لكن يجب الحفاظ على جميع سمات الاستقلال»[17].

ذهبت احتجاجات الجورجيين أدراج الرياح. كان ستالين عازما على تجريف كل شيء يقف في طريق مقترحاته. اجتمعت اللجنة يومي 23 و24 شتنبر، برئاسة عميل ستالين، مولوتوف. ورفضت القرار المقدم من جورجيا بتصويت الجميع ضده، باستثناء صوت واحد لصالحه (مديفاني، الممثل الجورجي). يوم 25 شتنبر، تم إرسال قرارات اللجنة إلى لينين، الذي كان يتعافى في غوركي. ومن دون انتظار آراء لينين، وحتى من دون مناقشة داخل المكتب السياسي، أرسلت الأمانة العامة (التي كانت معقل ستالين داخل الحزب) قرار اللجنة إلى جميع أعضاء اللجنة المركزية استعدادا للجلسة العامة في أكتوبر

في 26 شتنبر، كتب لينين إلى اللجنة المركزية، عبر كامينيف، يحثها على توخي الحذر بشأن هذه المسألة ويحذر من محاولة ستالين التعجل في العمل. ("يميل ستالين إلى أن يكون متسرعًا إلى حد ما"[18]). وقد رتب لينين لمقابلته في اليوم التالي، ولم يكن قد بدأ يشك بعد في المدى الذي ذهب إليه ستالين لفرض التوحيد. ومع ذلك، فحتى تلك الرسالة تشير إلى معارضته لأي إهانة للتطلعات الوطنية لشعب صغير وبالتالي تقوية سيطرة النزعة القومية

«الشيء المهم ليس هو توفير المواد للشعب "المؤيد للاستقلال"، وليس تدمير استقلاله، بل إنشاء مستوى جديدة آخر، فيدرالية للجمهوريات المتساوية»[19].

كانت التعديلات التي اقترحها لينين تهدف إلى تخفيف لهجة المسودة الأصلية التي قدمها ستالين، وذلك لإفساح المجال أمام الأشخاص "المؤيدين للاستقلال"، الذين اعتبرهم، في تلك المرحلة، مخطئين. وردا على تعليقات لينين المعتدلة، كتب ستالين إلى أعضاء المكتب السياسي في 27 شتنبر عددا من الردود المفاجئة والقاسية، بما في ذلك ما يلي

«فيما يتعلق بموضوع الفقرة الرابعة، أعتبر أن الرفيق لينين نفسه قد "تسرع" قليلا... وليس هناك شك في أن "تسرعه" سيزود دعاة "الاستقلال" بالوقود، على حساب الليبرالية القومية للينين»[20].

كان رد ستالين الفظ تعبيرا عن انزعاجه غير المخفي من "تدخل" لينين فيما اعتبره مجاله الخاص، والذي تفاقم بسبب خوفه من نتيجة تدخل لينين

كانت مخاوف ستالين مبررة. فبعد النقاش الذي أجراه لينين مع مديفاني، أصبح مقتنعا بأن ستالين يسيء التعامل مع المسألة الجورجية، وبدأ في جمع الأدلة. في 06 أكتوبر، كتب لينين مذكرة إلى المكتب السياسي، "حول مكافحة الشوفينية القومية المهيمنة"، قال فيها

«إنني أعلن الحرب حتى الموت على شوفينية الأمة المهيمنة. وسوف أنهشها بكل أسناني السليمة بمجرد أن أتخلص من هذه الأسنان الفاسدة اللعينة»[21].

في ذلك الوقت لم يكن لينين يعلم بعد التفاصيل الكاملة لما حدث في جورجيا. لم يكن يعلم أن ستالين، من أجل تعزيز قبضته، قام في الواقع بعملية تطهير ضد أفضل الكوادر البلشفية الجورجية، واستبدل اللجنة المركزية القديمة بعناصر جديدة وأكثر "ليونة"

إلا أن ما كان يعرفه كان كافيا لإثارة شكوكه. وفي الأسبوع التالي، بدأ بهدوء في جمع المعلومات حول "المسألة" الجورجية، وطلب من اللجنة المركزية إرسال ريكوف ودزيرجينسكي إلى تفليس للتحقيق في شكاوى البلاشفة الجورجيين

## وصية لينين

في 23 و24 دجنبر، بدأ لينين يملي على سكرتيرته رسائله الشهيرة للمؤتمر. وشدد على أن هذا يجب أن يكون سريا. كان عمل لينين يسير ببطء، وبشكل مؤلم، وتقطعه نوبات المرض. لكن ومن خلال كل ذلك، كانت الفكرة تصير واضحة بشكل متزايد بأن العدو المركزي يكمن داخل "الجهاز" البيروقراطي للدولة والحزب، والرجل الذي يقف على رأسه، ستالين

في مؤلفه "الوضع الحقيقي في روسيا"، سجل تروتسكي آخر محادثة أجراها مع لينين، قبل وقت قصير من السكتة الدماغية الثانية التي تعرض لها الأخير. كان رد تروتسكي على اقتراح لينين بضرورة مشاركة تروتسكي في لجنة جديدة للنضال ضد البيروقراطية (انظر "كيفية إعادة تنظيم مفتشية العمال والفلاحين") هو ما يلي

«فلاديمير إيليتش، وفقا لقناعتي، في الصراع الحالي ضد البيروقراطية في الجهاز السوفياتي، يجب ألا ننسى أنه تجري، في كل من المقاطعات والمركز، عملية اختيار خاصة للمسؤولين والمتخصصين الحزبيين وغير الحزبيين، ونصف الحزبيين، حول شخصيات ومجموعات قيادية داخل الحزب - في المقاطعات وفي المناطق وفي الفروع المحلية للحزب وفي المركز- أي اللجنة المركزية، وما إلى ذلك. بمهاجمتك للمسؤولين السوفياتيين، ستواجه قادة الحزب. فالمختص هو عضو في جناحه. في مثل هذه الظروف لم أستطع القيام بهذا العمل

ثم فكر فلاديمير إيليتش للحظة وقال، وأنا هنا أقتبس منه حرفيا تقريبا: "هذا يعني أنني أقترح صراعا مع البيروقراطية السوفياتية، وأنتم تريدون أن تضيفوا إلى ذلك بيروقراطية المكتب التنظيمي للحزب". ضحكت من عدم توقعي لذلك، لأنه لم تكن في ذهني مثل هذه الصيغة النهائية للفكرة. وأجبت: "أعتقد أن هذا هو الواقع"

ثم قال فلاديمير إيليتش: "حسنا، حسنا، أقترح تشكيل كتلة". وقلت: "أنا مستعد دائما لتشكيل كتلة مع إنسان صالح"»[22].

هذه المحادثة مهمة لأنها تلقي الضوء على مضمون مؤلفات لينين الأخيرة، وخاصة "الوصية" الشهيرة، والرسائل المتعلقة بالمسألة القومية، و"من الأفضل أقل، شريطة أن يكون أفضل". أصبحت لهجة رسائله حادة بشكل متزايد، وأصبحت أهدافه محددة بشكل أكثر وضوحا مع كل يوم يمر. وبغض النظر عن المسألة التي كان يتطرق لها فإن الفكرة المركزية كانت دائما هي نفسها: الحاجة إلى مكافحة ضغط القوى الطبقية الغريبة في الدولة والحزب، واستئصال البيروقراطية، والنضال ضد الشوفينية الروسية العظمى، والنضال ضد زمرة ستالين داخل الحزب

لكن وعلى الرغم من إلحاح لينين بأن تظل ملاحظاته سرية للغاية، فإن الجزء الأول من الوصية وجد طريقه إلى أيدي السكرتارية وستالين، واللذين أدركا على الفور خطورة تدخل لينين واتخذا التدابير اللازمة لمنع حدوث ذلك. وتمت ممارسة ضغوط شديدة على سكرتيرات لينين لمنعه من اكتشاف أي أخبار قد "تزعجه"

ومع ذلك فقد اكتشف لينين من دزيرجينسكي أن أوردجونيكيدزه قد وصل، من بين الاعتداءات الأخرى التي

ستالين و دزيرجنسكي يونيو 1924

ارتكبها فصيل ستالين، إلى حد ضرب أحد المعارضين الجورجيين. قد يبدو هذا شيئا صغيرا بالمقارنة مع الإرهاب الستاليني اللاحق، لكنه صدم لينين بشدة. لقد سجلت سكرتيرته في مذكراتها بتاريخ 30 يناير 1923 عبارات لينين: «قبل أن أمرض، أخبرني دزيرجينسكي عن عمل اللجنة وعن "الحادثة"، وكان لذلك تأثير مؤلم للغاية علي»[23].

ولفهم فداحة هذه الجريمة، من الضروري معرفة العلاقات بين القوميين الروس (أو الأصح "الروس العظماء") والأقليات القومية التي عوملت، في ظل حكم القيصر، بنفس الازدراء ونفس التعسف الهمجيين اللذان كان يعامل بهما الزنوج والهنود تحت سيطرة الإمبراطورية البريطانية. كانت المهمة التاريخية للثورة الروسية هي رفع تلك الأقليات المحتقرة إلى مرتبة البشر الكاملين، بحقوقهم وكرامتهم. إن فكرة قيام ممثل للأمة الروسية العظمى بإساءة معاملة مواطن جورجي أو ضربه، كانت بمثابة جريمة ضد الأممية البروليتارية، وهي وحشية قيصرية كان من الممكن أن يعاقب عليها بأشد العقوبات، أي بالطرد من الحزب على أقل تقدير.

ولهذا السبب صب لينين جام غضبه على ستالين وأوردجونيكيدزه، وطالب "بعقوبة نموذجية" لأوردجونيكيدزه خصوصا[24].

حرص ستالين على وضع كل العقبات في طريق تلقي لينين للمعلومات من جورجيا. وتعطي مقاطع عديدة من مذكرات سكرتيرات لينين صورة واضحة عن تلك المضايقات البيروقراطية

«في يوم الخميس 25 يناير، سأل [لينين] عما إذا كانت الوثائق [الخاصة باللجنة الجورجية] قد تم استلامها. أجبت بأن دزيرجينسكي لن يصل حتى يوم السبت. لذلك لم أتمكن من سؤاله

يوم السبت سألت دزيرجينسكي، قال إن ستالين لديه الوثائق. أرسلت رسالة إلى ستالين، لكنه كان خارج المدينة. بالأمس، 29 يناير، اتصل ستالين هاتفيا وقال إنه لا يستطيع تسليم الوثائق دون موافقة المكتب السياسي. **وسأل عما إذا كنت أخبر فلاديمير إيليتش بأشياء لا ينبغي إخباره بها -وكيف يحدث أن يتوصل بالأخبار حول الشؤون الجارية؟ إذ**

**أن مقاله عن رابكرين، على سبيل المثال، أظهر أنه على علم ببعض الأشياء**، أجبته أنني لم أكن أخبره بأي شيء ولم يكن لدي أي سبب للاعتقاد بأنه يتوصل بالأخبار حول الشؤون. واليوم أرسل لي فلاديمير إيليتش لمعرفة الجواب وقال إنه سيقاتل من أجل الحصول على الوثائق»[25]. (تمت اضافة خط التأكيد)

تكشف هذه السطور القليلة بشكل صارخ عن الأسلوب البيروقراطي المتنمر الذي حاول ستالين الدفاع به عن موقفه ضد لينين، الذي كان [ستالين] يخاف منه بشدة، حتى وهو [لينين] على فراش الموت. لا يمكن أن يكون هناك دليل أوضح من ذلك على "وقاحة" ستالين و"عدم ولائه" الذي أشار إليه لينين في وصيته

## من الأفضل أقل، شريطة أن يكون أفضل

ينعكس موقف لينين المتشكك تجاه لجنة دزيرجينسكي وسلوك اللجنة المركزية في تعليماته لأمناء سره

«1) لماذا تم اتهام اللجنة المركزية القديمة للحزب الشيوعي الجورجي بالانحراف؟
2) ما هو انتهاك الانضباط الذي اتهموا به؟
3) لماذا تُتهم لجنة عبر القوقاز بقمع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في جورجيا؟
4) الوسائل المادية للقمع "البيو ميكانيكي"
5) الخط السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي (للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)) في غياب فلاديمير إيليتش وبحضوره
6) موقف اللجنة. هل نظرت فقط في الاتهامات الموجهة ضد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الجورجي أم أيضا ضد لجنة عبر القوقاز؟ هل نظرت في حادثة القمع "البيو ميكانيكي"؟
7) الوضع الحالي (الحملة الانتخابية، المناشفة، القمع، الشقاق القومي)»[26].

لكن إدراك لينين المتزايد بالأساليب غير النزيهة والخيانية التي تتبعها عناصر في قيادة الحزب جعله أيضا لا يثق حتى في أمناء سره. أليس من الممكن أن يكون ستالين قد كمم أفواههم أيضا؟

«في 24 يناير قال فلاديمير إيليتش: "بادئ ذي بدء، بخصوص مهمتنا "السرية" هذه. أعلم أنكم تخدعونني». وأمام تأكيداتي، أجاب: "لدي رأيي الخاص في هذا الأمر"»[27].

وبصعوبة، تمكن لينين المريض من معرفة أن المكتب السياسي قد قبل استنتاجات لجنة دزيرجينسكي. في ذلك الوقت (من 02 إلى 06 فبراير) أملى لينين مقالته "من الأفضل أقل شريطة أن يكون أفضل"، التي شكلت الهجوم الأكثر صراحة على ستالين وبيروقراطية الحزب حتى ذلك الحين. لقد أقنعت الأحداث الجورجية لينين بأن الشوفينية الفاسدة للدولة هي أخطر مؤشر على الضغط الذي تمارسه الطبقات العدوة

«إن جهاز دولتنا في حالة يرثى لها، إن لم نقل بائسة، لهذا يجب علينا أن نفكر بعناية فائقة قبل كل شيء في كيفية محاربة عيوبه، واضعين في الاعتبار أن تلك العيوب تضرب بجذورها في الماضي، الذي، على الرغم من أنه قد أطيح به، فإنه لم يتم بعد التغلب عليه...»[28].

وفي آخر ظهور علني له في تجمع سياسي (خلال المؤتمر الحادي عشر للحزب الشيوعي الروسي (البلشفي)، حذر لينين من أن آلة الدولة كانت تفلت من سيطرة الشيوعيين

«لقد رفضت الآلة الانصياع لليد التي تقودها، لقد كانت مثل سيارة لا تستجيب للمقود، بل تسير في اتجاه يريده شخص آخر؛ كما لو كانت تقاد من قبل يد غامضة، لا يعلمها إلا الله، يمكن أن تكون يد وصولي، أو رأسمالي، أو كلاهما. لكن أيا كان الأمر، فإن السيارة لا تسير في الاتجاه الذي يتخيله الجالس وراء عجلة القيادة، وغالبا ما تسير في اتجاه مختلف تماما»[29].

إن سم القومية، وهو السمة الأكثر وضوحا لجميع أشكال الستالينية، كانت له جذوره في ردة البرجوازيين الصغار، والكولاك، والنيبمان، والمسؤولين السوفياتيين ضد المبدأ الأممي الثوري لثورة أكتوبر

## القطيعة مع ستالين

اقترح لينين النضال ضد تلك الردة في المؤتمر المقبل، بالتحالف مع تروتسكي، الذي كان العضو الوحيد في اللجنة المركزية الذي يمكن أن يثق به لدعم وجهة نظره

اقترح التعامل شخصيا مع مسألة رابكرين وكان "يجهز قنبلة" لستالين[30]. إن اقتناعه بأن "جهاز" الحزب كان يخطط لإبقائه بعيدا بأي ثمن، يتجلى في ملاحظة سكرتيرته التي تقول: «من الواضح، علاوة على ذلك، أن فلاديمير إيليتش لديه انطباع بأن الأطباء ليسوا هم الذين أعطوا التعليمات للجنة المركزية، بل اللجنة المركزية هي التي أعطت التعليمات للأطباء»[31].

كانت شكوك لينين مبنية على أسس متينة. إحدى الأفكار التي تم طرحها بجدية في اللجنة المركزية في ذلك الوقت كانت طباعة عدد خاص من صحيفة البرافدا، خاص للينين، من أجل خداعه بشأن القضية الجورجية!

إن المبرر القائل بأن كل ذلك كان من أجل صحة لينين لا أساس له من

الصحة. وكما أوضح هو نفسه، لم يكن هناك ما أثار غضبه وأزعجه أكثر من التصرفات غير النزيهة لأعضاء اللجنة المركزية ونسيج الأكاذيب الذي تستروا به.

وقد انفضح موقف ستالين الحقيقي تجاه لينين المحتضر في حادثة وحشية بكل المقاييس تتعلق بكروبسكايا، زوجة لينين، التي أثناء محاولتها الدفاع عن زوجها المريض ضد ممارسات ستالين الوقحة، تمت مكافأتها بإساءة فظة من "التلميذ المخلص". تصف كروبسكايا الحادثة في رسالة إلى كامينيف، بتاريخ 23 دجنبر 1922، قائلة

«ليف بوريسوفيتش،
فيما يتعلق بالرسالة القصيرة التي كتبتها بناء على إملاء فلاديمير إيليتش بإذن من الأطباء، اتصل بي ستالين بالأمس وخاطبني بطريقة شديدة الفظاظة. ليس هذا هو اليوم الأول لدي في الحزب، لكن وطوال الثلاثين عاما بأكملها، لم أسمع قط كلمة فظة واحدة من أحد الرفاق. مصالح الحزب وإيليتش ليست أقل أهمية بالنسبة لي مما هي بالنسبة لستالين. أنا الآن بحاجة إلى أقصى قدر من ضبط النفس. أنا أعرف أفضل من أي طبيب ما الذي يمكن أو لا يمكن أن يقال لإيليتش، لأنني أعرف ما يزعجه وما لا يزعجه، وعلى أية حال أفضل من ستالين»[32].

توسلت كروبسكايا إلى كامينيف، الذي كان صديقا شخصيا لها، لحمايتها «من التدخل الفظ في حياتي الشخصية، ومن المشاجرات والتهديدات غير المستحقة»، مضيفة أنه فيما يتعلق بتهديد ستالين لها بجرها للمثول أمام لجنة مراقبة: «ليس لدي لا القوة ولا الوقت الذي أضيعه في مثل هذه المشاحنات الغبية. أنا أيضا إنسان وأعصابي متوترة إلى حد الانهيار»[33].

غالبا ما يتم تفسير تهديد لينين بقطع جميع العلاقات الرفاقية مع ستالين واتهامه له بـ"الوقاحة" في وصيته، من خلال إشارات غامضة إلى هذه الحادثة. لكن في المقام الأول، لم يكن ما فعله ستالين مسألة "شخصية"، بل كان جريمة سياسية خطيرة، يعاقب عليها بالطرد من الحزب. وتتفاقم الإهانة بسبب حقيقة مفادها أن موقع ستالين في الحزب يجعل من واجبه استئصال مثل ذلك السلوك، وليس تبنيه وممارسته

ومع ذلك، فإنه يجب النظر إلى هذه "الحادثة الصغيرة" في سياقها الصحيح. إنها ليست سوى أكثر مظاهر خيانة ستالين بشاعة ووضوحا

قضى لينين آخر أيام نشاطه في تنظيم معركته ضد فصيل ستالين في المؤتمر. لقد كتب رسالة إلى تروتسكي يطلب منه الدفاع عن الرفاق الجورجيين، وكتب إلى القادة الجورجيين يعبر لهم عن التزامه التام بقضيتهم. تجدر الإشارة إلى أن تلك العبارات التأكيدية مثل "من كل قلبي" و"مع أطيب التحيات الرفاقية" نادرا ما توجد في رسائل لينين، الذي كان يفضل أسلوبا أكثر تحفظا في الكتابة. لقد كان ذلك مقياسا لالتزامه بالنضال. وتجدر الإشارة أيضا إلى أن كتلة لينين كانت

ديميتري مور

تشكل فصيلا سياسيا، والذي أطلق عليه الستالينيون فيما بعد اسم "الكتلة المناهضة للحزب". كان الستالينيون قد نظموا بالفعل فصيلهم الذي كان يسيطر على آلة الحزب

قامت فوتييفا، سكرتيرة لينين، بتدوين ملاحظات لينين الأخيرة حول المسألة الجورجية، استعدادا على ما يبدو لإلقاء خطاب في المؤتمر

«تعليمات فلاديمير إيليتش كانت بإعطاء تلميح إلى ستولتز بأنه [لينين] كان إلى جانب الطرف المتضرر. يجب أن يفهم الجميع من الطرف المتضرر أنه كان إلى جانبهم. ثلاث لحظات: 1) لا ينبغي للمرء أن يقاتل. 2) يجب تقديم التنازلات. 3) لا يمكن مقارنة دولة كبيرة بدولة صغيرة. هل كان ستالين يعلم؟ لماذا لم يتفاعل؟ إطلاق اسم "الانحراف" على الانحراف نحو الشوفينية والمنشفية يثبت نفس الانحراف مع الشوفينيين في الأمة المهيمنة. جمع المطبوعات لفلاديمير إيليتش»[34].

في التاسع من مارس، أصيب لينين بسكتة دماغية ثالثة، جعلته مشلولا وعاجزا. فانتقل مشعل النضال ضد الانحطاط البيروقراطي إلى تروتسكي والمعارضة اليسارية. لكن لينين كان هو من وضع الأساس لبرنامج المعارضة ضد البيروقراطية، وضد خطر الكولاك، ومن أجل التصنيع والتخطيط الاشتراكي، ومن أجل الأممية الاشتراكية والديمقراطية العمالية

## مراجع وهوامش:


1: V I Lenin, "Fourth Anniversary of the October Revolution", *Lenin Collected Works*, Vol. 33, Progress Publishers, 1966, pg 57

2: V I Lenin, "The New Economic Policy And The Tasks Of The Political Education Departments", Lenin Collected Works, Vol. 33, Progress Publishers, 1966, pg 72

3: نيبمان (Nepmen) اسم قدحي كان يطلق على تلك الشريحة التي استفادت من السياسة الاقتصادية الجديدة (The New Economic Policy (NEP)، وشكلت لاحقا الاساس الاجتماعي للردة الستالينية. المترجم.

4: V I Lenin, "Five Years of the Russian Revolution and the Prospects of the World Revolution", *Lenin Collected Works*, Vol. 33, Progress Publishers, 1966, pg 426

5: V I Lenin, "Note to J. V. Stalin with a Draft Decision for the Politbureau of the C.C., R.C.P. (B.) on the Question of the Foreign Trade Monopoly", *Lenin Collected Works*, Vol. 42, Progress Publishers, 1971, pg 418

6: *ibid*. footnote no. 476

7: *ibid*.

8: Quoted in V I Lenin, "Letter To J V Stalin For Members Of The CC, RCP(B) Re

The Foreign Trade Monopoly", *Lenin Collected Works*, Vol. 33, Progress Publishers, 1966, pg 375, footnote no.115

9: V I Lenin, "Letter to L D Trotsky", *Lenin Collected Works*, Vol. 45, Progress Publishers, 1976, pg 607

10: E H Carr, *A History of Soviet Russia*, MacMillan, 1950, pg 203

11: *ibid*. pg 227

12: V I Lenin, "How We Should Reorganise the Workers' and Peasants' Inspection"

13: V I Lenin, "Better Fewer, But Better", *Lenin Collected Works*, Vol. 33, Progress Publishers, Moscow, 1965, pg 490

14: *ibid*. pg 494

15: E H Carr, *A History of Soviet Russia*, MacMillan, 1950, pg 349-350

16: V I Lenin, "Telegram to the Revolutionary Military Council of the 11th Army", Lenin Collected Works, Vol. 35, Progress Publishers, 1976, pg 479

17: M Lewin, *Lenin's Last Struggle*, Pantheon Books, 1968, pg 48

18: V I Lenin, "On the Establishment of the U.S.S.R." Lenin Collected Works, Vol. 42, Progress Publishers, 1971, pg 421

19: *ibid*. pg 422

20: L Trotsky, *The Stalin School of Falsification*, Pathfinder Press, 1972, pg 67-68

21: V I Lenin, "Memo Combatting Dominant Nation Chauvinism", *Lenin Collected Works*, Vol. 33, Progress Publishers, Moscow, 1965, pg 372

22: L Trotsky, *The Real Situation in Russia*, Harcourt Brace and Co., 1928, pg 304-305

23: L A Fotieva, "Journal of Lenin's Duty Secretaries", Lenin Collected Works, Vol. 42, Progress Publishers, 1969, pg 484

24: V I Lenin, «The Question of Nationalities or "Autonomisation"«, *Lenin Collected Works*, Vol. 36, Progress Publishers, 1971, pg 610

25: L A Fotieva, "Journal of Lenin's Duty Secretaries", *Lenin Collected Works*, Vol. 42, Progress Publishers, 1969, pg 484, emphasis added

26: *ibid*. pg 485, footnote no. 607

27: *ibid*

28: V I Lenin, "Better Fewer, But Better", *Lenin Collected Works*, Vol. 33, Progress Publishers, Moscow, 1965, pg 487

29: V I Lenin, "Political Report Of The Central Committee Of The R.C.P. (B.)", *Lenin Collected Works*, Vol. 33, Progress Publishers, 1966, pg 279

30: L Trotsky, *The Stalin School of Falsification*, Pathfinder Press, 1972, pg 75

31: L A Fotieva, "Journal of Lenin's Duty Secretaries", *Lenin Collected Works*, Vol. 42, Progress Publishers, 1969, pg 492-493

32: M Lewin, Lenin's Last Struggle, Pantheon Books, 1968, pg 152-153

33: Ibid. pg. 153

34: L A Fotieva, "Journal of Lenin's Duty Secretaries", *Lenin Collected Works*, Vol. 42, Progress Publishers, 1969, pg 493, footnote no. 614

# كيف درس لينين هيغل

**في خريف عام 1914 بدأ لينين دراسة مفصلة لكتابات هيغل. تحتوي ملاحظاته على رؤية عميقة للمنهج الديالكتيكي الذي كان بارعا فيه. في هذه المقالة، يسلط حميد علي زاده الضوء على الجوانب الأساسية لهذا المنهج، مؤكدا على الأهمية الأساسية التي تكتسيها النظرية بالنسبة للحركة الشيوعية.**

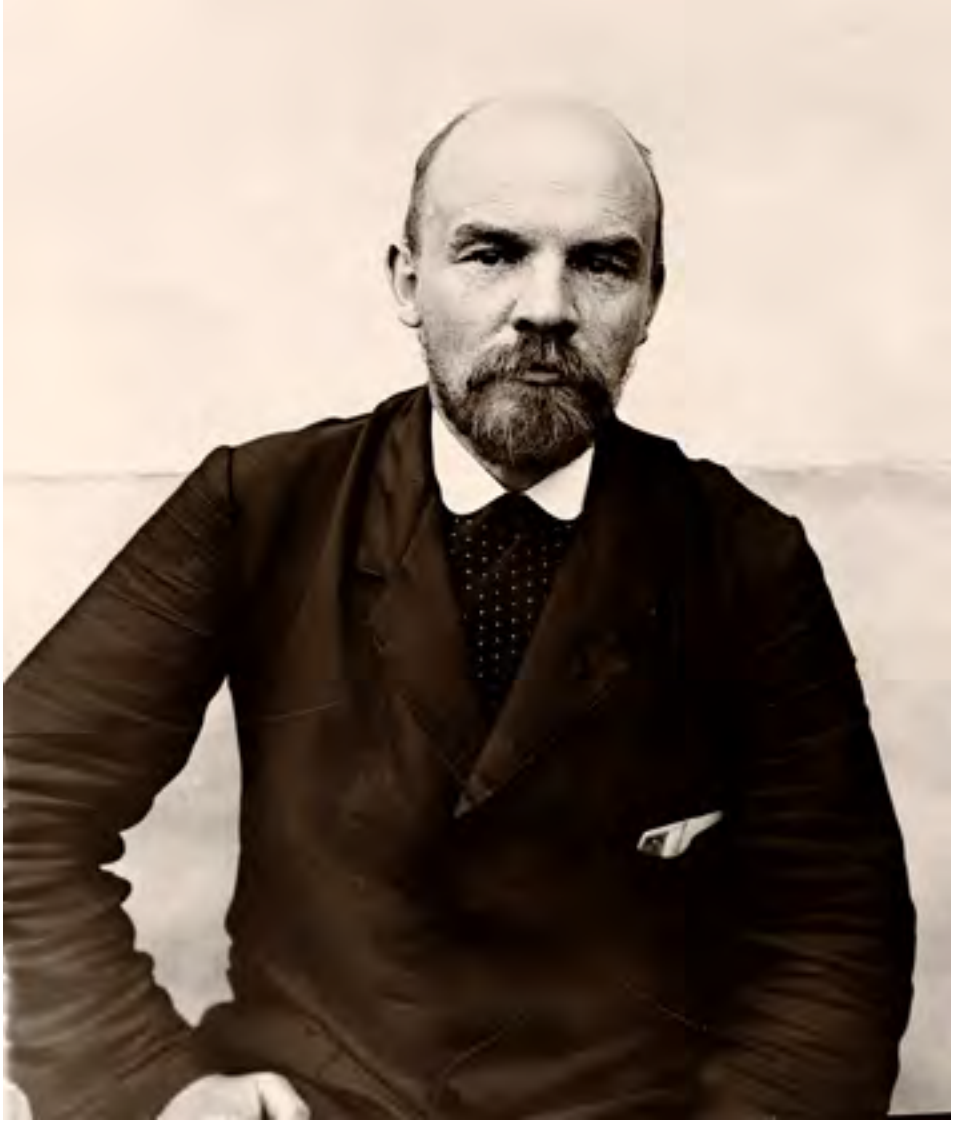

في صيف عام 1914، اندلعت الحرب في أوروبا وتغير مسار تاريخ العالم بين عشية وضحاها. وبمباركة الزعماء الاشتراكيين الديمقراطيين الخونة، جرت البرجوازية الأوروبية الإنسانية إلى دوامة مذبحة جهنمية، تم فيها إرسال عشرات الملايين من العمال والفلاحين إلى المجزرة.

تسببت الخيانة التي اقترفتها قيادة الأممية الثانية في تحطيم المنظمة الرئيسية للحركة العمالية العالمية، تاركة البروليتاريا العالمية بلا دفاع في الوقت الذي كانت الرجعية ترفع رأسها القبيح في كل مكان. وفي الوقت نفسه، تقلصت قوى الماركسية الثورية إلى أقلية صغيرة، مشتتة في جميع أنحاء أوروبا وبدون برنامج أو قيادة واضحين.

عندما اندلعت الحرب وجد لينين نفسه في بولندا، واضطر إلى الانتقال على عجل إلى سويسرا. لم يتوقع خيانة قادة الأممية، وصُدم في البداية عند سماعه أخبار تصويت الحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني في الرايخستاغ لصالح اعتمادات الحرب. آنذاك أصبحت الأممية في حالة خراب، وكان الصراع الطبقي في روسيا ينحسر في مواجهة الحرب، وصار لينين معزولا عن الجميع باستثناء حفنة من رفاقه.

ومع ذلك، ففي تلك اللحظة بالتحديد، عندما كانت المهام التنظيمية والسياسية المباشرة تلوح في الأفق بملاحية أكبر من أي وقت مضى، انكب لينين على دراسة متعمقة للفلسفة الهيغلية. لكن، قد يتساءل البعض، لماذا قد يميل المرء إلى الانغماس في دراسة مسائل نظرية مجردة في خضم مثل هذه الأزمة؟ قد يبدو هذا بالنسبة للعقل الميكانيكي غريبا، بل وحتى سخيفا. وقد يقال ماذا عن "احتياجات" الحزب؟ وأن الأهم في مثل هذا الوضع هو التركيز

على الأمور العملية المباشرة المطروحة!

من المؤكد أن مثل هذا القول من شأنه أن ينسجم مع الصورة الفجة التي يقدمها البرجوازيون عن لينين على أنه إنسان تافه، أو ما يسمى بالرجل العملي؛ وبكونه "متآمرا بارعا" صارما لا يلقي بالا للأمور "التافهة" مثل التأملات الفلسفية، وهي الصورة، بالمناسبة، التي لا تختلف عن تلك الصورة الكاريكاتورية التي كثيرا ما تقدمها الستالينية عن لينين.

إن هذه النظرة، في الواقع، تتناقض بشكل حاد مع المنهج الحقيقي للينين والماركسية بشكل عام. إن ما يميز لينين عن بقية قادة الأممية الثانية الآخرين هو، أولا وقبل كل شيء، وضوحه وموقفه الطبقي الثابت، وهي الصفات التي كانت تقوم على أساس تصوره النظري.

في عام 1914، عصفت الحرب بالوضع العالمي مثل إعصار عملاق، فمزقت كل شيء ثابت وصلب في طريقها. جميع البلدان سقطت في حالة من الاضطراب العنيف. وتم وضع جميع التيارات السياسية على المحك، وانفضحت بقسوة كل نقاط ضعفها. وفي مثل هذه الظروف، لا يمكن للارتجال الانطباعي أن يحقق أي شيء على الإطلاق.

لقد توقع الماركسيون الحرب. ومع ذلك فقد كان الوضع جديدا، الأمر الذي يتطلب إعادة توجيه الحزب بطريقة ماهرة. كان هذا هو السياق الذي شرع فيه لينين في رحلة جديدة إلى الفلسفة باعتبارها وسيلة لتعميق فهمه لقوانين الطبيعة والمجتمع.

وتعتبر دفاتر ملاحظاته الفلسفية التي تعود لتلك الفترة، وخاصة ملاحظاته حول كتاب هيغل "علم المنطق"، ليس فقط كنزا عظيما من الأفكار، بل إنها تزودنا أيضا بمعلومات مفيدة للغاية عن منهج لينين وموقفه تجاه النظرية.

## منهج لينين

لم يكن لينين بأي حال من الأحوال غريبا عن هيغل أو الفلسفة بشكل عام. لقد درس باهتمام كبير أعمال ماركس وإنجلز الفلسفية، وكذلك كتابات بليخانوف الفلسفية، التي لعبت دورا رئيسيا في تطوير النواة الأولى للثوريين الماركسيين في روسيا.

كما أنه انخرط في فترة من الدراسة الفلسفية الجادة في أعقاب ثورة 1905، وكتب كتابا بعنوان "المادية والنقد التجريبي" ضد الأفكار التحريفية لبوغدانوف، الزعيم البلشفي الذي انجرف إلى فلك الفلسفة البرجوازية الرجعية.

وهكذا، كما تكشف دفاتر ملاحظاته الفلسفية، فإن لينين قد كان بالفعل أستاذا في الديالكتيك قبل عام 1914. ومع ذلك فإن المرء لا يشعر فيه أبدا بأدنى تلميح إلى الرضا الذاتي المريح عن مستواه السياسي والنظري. فطوال حياته، ومثلما هو الحال مع كل المعلمين الكبار، تعامل لينين مع النظرية بتواضع واجتهاد الطالب.

لقد استعرض بشكل منهجي علم المنطق لهيغل، حيث قام بتدوين ملاحظات مفصلة والتفكير في كل مفهوم موجود فيه. لم تكن هذه مهمة سهلة بأي حال من الأحوال. وبكلماته الخاصة، يبدو أن بعض الأجزاء من ذلك المؤلف هي "أفضل وسيلة للإصابة بالصداع!"[1]. لكن كل الأشياء القيمة تحتاج إلى بذل الجهد، واكتساب الأفكار الأكثر تقدما يتطلب بالضرورة عملا شاقا.

في ملاحظاته تلك يمكننا أن نرى كيف قام لينين، مثله مثل عالم التشريح، بتشريح وتقييم كل جزء من كتاب هيغل بعناية، قبل تجميعها معا وعرض الأفكار ككل. ومن خلال قيامه بذلك، لم يتمكن فقط من إتقان منهج هيجل، بل انتقده أيضا، وفصل النواة الحية عن قشرتها الميتة. لقد كانت طريقة لينين في الدراسة بحد ذاتها بمثابة دروس متقدمة في الديالكتيك. وقد لخص تروتسكي هذا المنهج في مقالته كيف درس لينين ماركس قائلا:

«الدراسة، التي ليست مجرد تكرار ميكانيكي، تتضمن أيضا جهدا إبداعيا، لكنه من النوع العكسي:

إن تلخيص عمل شخص آخر يعني الكشف عن الإطار الهيكلي لمنطقه، وتجريد البراهين والرسوم التوضيحية والاستطرادات. كان فلاديمير يتقدم بسرور وحماس على هذا الطريق الصعب، يلخص كل فصل، وأحيانا صفحة واحدة، وهو يقرأ ويفكر ويتحقق من البنية المنطقية، والتحولات الديالكتيكية، والمصطلحات. وبتملكه للنتائج استوعب المنهج. لقد تسلق الدرجات المتعاقبة لنظام شخص آخر كما لو كان هو نفسه يبنيه من جديد. لقد استقر كل ذلك بقوة في هذا الدماغ المنظم جيدا تحت قبة الجمجمة القوية»[2].

تشهد دفاتر لينين الفلسفية على عقله الحازم، الذي كان يبحث باستمرار عن أفكار وزوايا جديدة يمكن أن توسع فهمه للعالم من حوله. وبينما كان يتعامل مع المسائل التنظيمية بأقصى قدر من المرونة، فإن إصراره على الوضوح النظري هو ما ميزه بكونه زعيما بارزا، وميز الحزب البلشفي باعتباره التيار الثوري الوحيد الحازم في عصره.

## هل نحتاج للفلسفة؟

«لا حركة ثورية بدون نظرية ثورية. إننا لا نبالغ مهما شددنا على هذه الفكرة في مرحلة يسير فيها التبشير الشائع بالانتهازية جنبا إلى جنب مع الميل إلى أشكال النشاط العملي الأشد ضيقا»[3].

يستطيع العديد من الشيوعيين أن يقتبسوا كلمات لينين الشهيرة -أو على الأقل الجملة الأولى منها- من ذاكرتهم، وهم لا يضيعون أي فرصة للقيام بذلك. لكن هل هذا يعني أنهم يفهمون المعنى الكامل لها؟ يمكن للتعود أن يكون مخادعا. يمكن له أن يغش الناس ويدفعهم إلى شعور زائف باليقين، وبالتالي يعيقهم عن فهم عمق الأشياء.

وهنا نرى الفرق بين الماركسية وبين التجريبية التي تميز الفلسفة البرجوازية اليوم. بالنسبة للماركسيين يعتبر الأمر المباشر الذي بين أيديهم هو مجرد لقطة سريعة؛ مجرد شريحة أو جانب واحد من ظاهرة معينة، والتي يجب دراستها وكشفها وفهمها في مجملها بشكل ملموس. أما بالنسبة للتجريبي فإن المباشر هو كل ما هو موجود، وكل شيء آخر هو كتاب مختوم بسبعة أختام.

يتبنى الإصلاحيون الفلسفة البرجوازية دون انتقاد، ويعملون، مثلهم مثل أسيادهم، على خفض رؤوسهم والركوع أمام ما يسمى "الحقيقة الثابتة". وهنا يكمن الجوهر الفلسفي للانتهازية.

يشكل النهج الذي اتبعه الإصلاحيون في التعامل مع الحرب العالمية الأولى مثالا واضحا على ذلك. لقد تعاملت كل الطبقات السائدة في أوروبا مع الحرب من وجهة نظر مصالحها الوطنية الضيقة، والتي بررتها باللجوء إلى مبادئ مجردة، مثل "الدفاع عن الوطن الأم" أو "حق الأمم في تقرير المصير".

وهكذا دخل حكام كل تلك الأمم الواحدة منها تلو الأخرى الحرب بعد اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، وألقى كل منهم باللوم على الآخر في إثارة الأعمال العدائية. هذا هو المدى الذي يفهم فيه البرجوازيون الحرب العالمية الأولى: باعتبارها سلسلة من القرارات التي اتخذها العديد الحكام. إذا نظرنا إلى ما حدث بالاقتصار على سطح الأشياء، فمن المؤكد أن مسار الأحداث قد كان على ذلك المنوال، لكن هناك ما هو أكثر من مجرد المظهر السطحي.

وقد جادل الاشتراكيون الديمقراطيون في ذلك الوقت بنفس الطريقة، وإن بخطاب يميل إلى اليسار. ردد الاشتراكيون الديمقراطيون النمساويون صدى المشاعر المعادية لروسيا والمعادية للصرب لحزب الحرب في فيينا. في حين تحدث بليخانوف والانتهازيون في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي عن تهديد الإمبريالية الألمانية الرجعية والحاجة إلى مساعدة صربيا المضطهدة. بينما صوت الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان لصالح ميزانية الحرب بمبرر الحاجة إلى وقف الإمبريالية الروسية الرجعية، وما إلى ذلك.

جميعهم نظروا إلى الحرب من منظور طبقتهم الرأسمالية الوطنية فقط، وعلى هذا الأساس سارعوا إلى "الدفاع عن الوطن"، وصوتوا بفارغ الصبر لإرسال ملايين العمال إلى حتفهم.

أما لينين، من جهة أخرى، فقد أوضح أن الحرب كانت نتاج الفترة السابقة بأكملها من التطور الرأسمالي. كان صعود الاحتكارات الصناعية العملاقة وهيمنة رأس المال المالي بمثابة مرحلة جديدة في تاريخ الرأسمالية، حيث دفعت الحاجة المستمرة لتصدير رأس المال البلدان المتقدمة والإمبريالية إلى صراع شرس من أجل تقسيم العالم وإعادة تقسيمه بحثا عن مجالات الاستثمار والأسواق ومناطق النفوذ.

وأوضح أن "الدفاع عن الوطن الأم" في مثل هذه الظروف كان مجرد غطاء للدفاع عن المصالح الضيقة للطبقات السائدة في كل أمة على حدة، أي لصالح مستغلي ومضطهدي البروليتاريا والجماهير الفقيرة الكادحة.

وهنا نرى في الممارسة العملية الفرق بين القبول الأعمى لفلسفة الطبقة السائدة، وبين تبني وجهة نظر فلسفية ثورية واعية.

خلال المرحلة الصاعدة للرأسمالية، استخدمت البرجوازية الفلسفة سلاحا قويا ضد الإقطاع والمدافعين الأيديولوجيين عنه في الكنيسة الكاثوليكية. وتحت راية العلم والعقل، كشفت نفاق المجتمع الإقطاعي وعدم عقلانيته.

لكن ومع وصول الطبقة الرأسمالية إلى مرحلة إفلاسها، تغيرت طبيعة فلسفتها أيضا وأصبحت محافظة تماما.

> "لقد كان من أعظم إنجازات ماركس وإنجلز إنقاذ الديالكتيك من أغلال مثالية هيغل الميتة و"قلبه رأسا على عقب"."

ومثلها مثل عقائد الكنيسة التي حاربتها ذات يوم، صارت المذاهب البرجوازية في يومنا هذا تدافع عن الوضع الراهن.

وفي حين أن مذاهب الكنيسة القديمة وصفت الإيمان والكتاب المقدس بأنهما الطريق إلى الحقيقة، فإن كبار الكهنة الأكاديميين اليوم وغيرهم من النقاد المأجورين يبشرون بعدم عقلانية الطبيعة والمجتمع ويدعون إلى أن التجربة الذاتية المباشرة -تجربتهم الذاتية بالتأكيد!- هي كل ما هو موجود.

في الماضي، كان رجال الدين يعظون لصالح "النظام الإلهي للأشياء"، حيث كان الملك في القمة، يليه الإقطاعيون، وفي الأسفل توجد الطبقات الدنيا. أما اليوم، فإن كبار كهنة رأس المال يبشرون بقدسية الرأسمالية -السوق، والملكية الخاصة، والدولة القومية وكل الروث الأخلاقي الرجعي الذي يجلبه كل ذلك معه- باعتبارها الجوهر الثابت للبشرية.

لقد تحولت الفلسفة البرجوازية بالضرورة إلى نقيضها. وبدلا من أن تسعى إلى كشف الحقيقة، فإن الغرض الحقيقي من الأفكار التي يتم نشرها الآن، من خلال الدين الرسمي ووسائل الإعلام والمدارس وما إلى ذلك، هو إخفاء الحقيقة.

وبالتالي فإن الحقيقة هي السلاح الأكثر أهمية في يد الطبقة العاملة. ومثلها مثل كل الطبقات الثورية التي سبقتها، يجب على البروليتاريا أن تتبنى فلسفة ثورية واعية إذا كانت تريد فهم طريقة عمل النظام الرأسمالي وكيف يمكن القضاء عليه.

## فكر مجرد

"الحقيقة ملموسة"[4]، كان لينين يستشهد كثيرا بهذه العبارة من عند هيغل. والماركسية تتعامل أولا وقبل كل شيء مع الحقيقة. لكن هذا لا يعني أن التفكير المجرد، في حد ذاته، غير صحيح. بل على العكس تماما.

وكما كتب لينين في ملاحظاته عن "منطق" هيغل، فإن:

«الفكر المنطلق من الملموس إلى المجرد -بشرط أن يكون صحيحا (ملاحظة هامة) (...)- لا يبتعد عن الحقيقة بل يقترب منها. إن تجريد المادة، تجريد قانون الطبيعة، تجريد القيمة، وما إلى ذلك، وباختصار كل التجريدات العلمية (الصحيحة، الجادة، غير السخيفة) تعكس الطبيعة بشكل أعمق وحقيقي وكامل»[5].

المعرفة الحقيقية ليست مجرد تكديس للحقائق واحدة فوق الأخرى. النقطة المهمة هي فهم العلاقة بين تلك الحقائق. وهذا هو دور الفلسفة: تزويدنا برؤية شاملة للعالم، ومنهج للتعامل مع الطبيعة والمجتمع من حولنا. الفكر المجرد صحيح بقدر ما يعكس الواقع. والسؤال الرئيسي بالطبع هو كيف يمكننا الوصول إلى هذه الحقيقة؟

## الديالكتيك

استندت ثورة هيغل في الفلسفة إلى موضوعيته -أي اعتقاده بأن العالم موجود بشكل مستقل عن البشرية، وأنه يعمل على أساس قوانينه المتأصلة. وعلى هذا الأساس، فإن مهمة العلم والفلسفة ليست استحضار نظام يجر العالم بالقوة، بل استكشاف العالم كما هو، في ذاته، وبالتالي استخلاص القوانين التي تحكمه.

وفي كتابه المنطق، أجرى هيغل ببراعة هذا التحليل على التفكير العلمي نفسه. فقد شرع، خطوة بخطوة، في تتبع الفكر البشري وهو يتكشف بنفسه. وشرع انطلاقا من أبسط وأعم مفهوم ممكن، في الكشف عن القوانين التي تحكم الفكر العقلاني في حد ذاته.

يدعونا في افتتاحية كتابه إلى التأمل في المفهوم البسيط لـ"الوجود الخالص". يعني هيغل هنا بـ"الخالص" أنه غير محدد نهائيا وغير متمايز، وبلا حدود ولا خصائص خاصة، ولا شيء محدد يحدده:

محض وجود خالص. وكما يشير هيغل، فبغض النظر عن مدى صعوبة محاولتنا التفكير في الأمر، فإنه لا يمكننا أن نقول أي شيء عن مثل هذا الوجود، لأن أي شيء نقوله من شأنه أن يحده ويحدده، وبالتالي فلن يبقى "خالصا" بعد ذلك.

وبالتالي، فإنه في هذا الشكل الخالص، لا يمكننا في الواقع التحدث عن أي وجود معين على الإطلاق. لذلك نصل إلى استنتاج مفاده أن الوجود الخالص لا يختلف عن العدم. وبعبارة أخرى فإن فكرة الوجود الخالص تقودنا مباشرة إلى فكرة العدم.

ولكن بعد التأمل، نكتشف أن هذه ليست نقطة النهاية. لأنه يتضح أن فكرة "العدم الخالص"، في فراغها وعدم تحديدها، لا تختلف عن الوجود الخالص.

ولذلك فإن المفهومين ينتقلان إلى بعضهما البعض بمجرد أن نحاول تثبيتهما في أفكارنا، أو كما يكتب هيغل: «يختفي كل منهما على الفور في نقيضه»[6]. وهنا، في وحدة الوجود والعدم هذه، نلتقي بمفهوم أو بمقولة جديدة، وهي الصيرورة؛ الذي هو مفهوم أعلى، يحمل في داخله الوجود والعدم.

في هذا المثال البسيط، أو التجربة الفكرية، أوجز هيغل بذرة كل الديالكتيك بدءا من المبدأ الأساسي المتمثل في أن كل شيء في حالة من التغيير المستمر، من النشوء إلى الوجود والفناء.

يعلق لينين قائلا: "بارع وذكي! "، ويضيف: «يقوم هيغل بتحليل المفاهيم التي تبدو عادة وكأنها ميتة ويبين أن هناك حركة فيها. محدود؟ هذا يعني الانتقال إلى نهاية ما! شيء ما؟ يعني ليس ذلك الذي هو آخر. "الوجود بشكل عام؟ يعني عدم التحديد إلى درجة أن الوجود = عدم الوجود"»[7].

## طريق التغيير

«الحركة و"الحركة الذاتية" (ملحوظة هامة! حركة اعتباطية (مستقلة)، عفوية، ضرورية داخليا)، "التغيير"، "الحركة والحيوية"، "مبدأ كل حركة ذاتية"، "الاندفاع" (قيادة) إلى "حركة" و"نشاط" -عكس "الوجود الميت"- من يصدق أن هذا هو جوهر "الهيغلية"، الهيغلية المجردة والغامضة (المملة والسخيفة؟)؟؟ لا بد من إعادة اكتشاف هذا الجوهر، وفهمه، [وإنقاذه]، وتوضيحه، وصقله، وهو بالضبط ما فعله ماركس وإنجلز»[8].

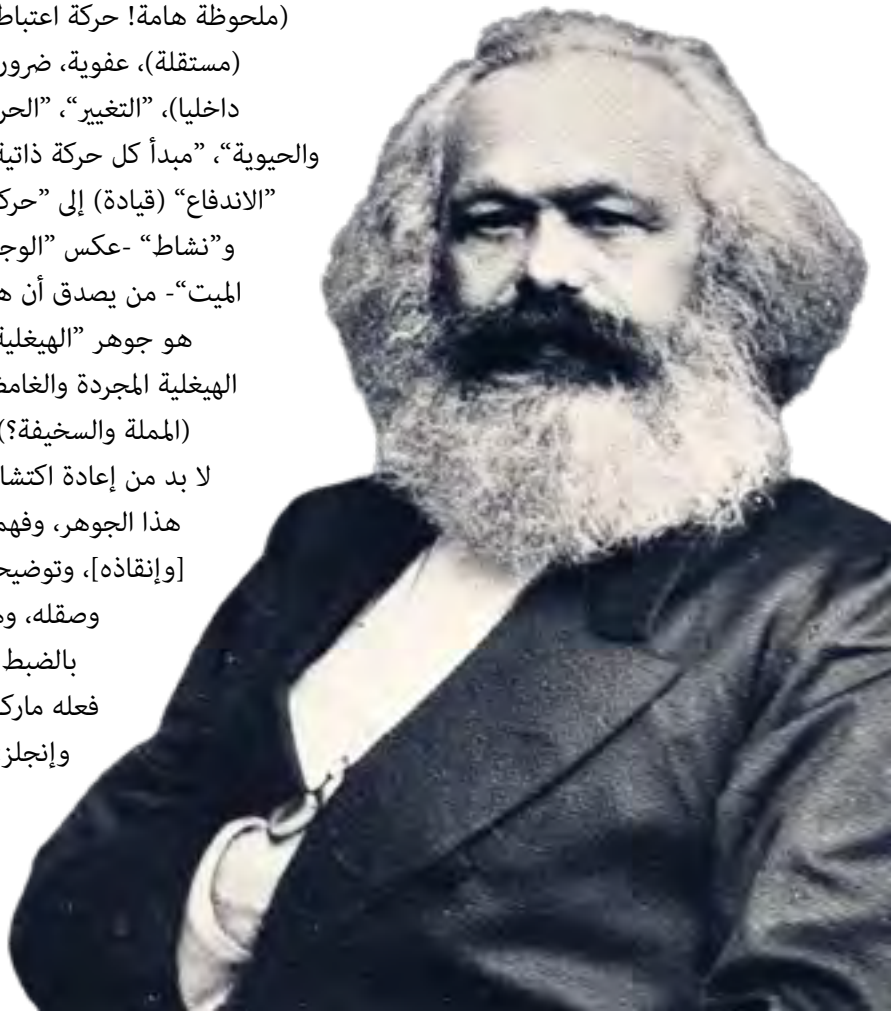

بالنسبة للتجريبية البرجوازية الصغيرة، تظل الأمور على حالها أو في أفضل الأحوال تتحرك بطريقة دائرية. وبما أن اليوم يشبه الأمس، فإن الغد سيكون هو نفسه مرة أخرى. يبدو الوضع القائم أمامه كلي الجبروت، وبالتالي فإنه لا يرى خيارا سوى التذمر منه باستمرار، مع رفض أي محاولة للقطيعة معه.

سيجد دائما طرقا لإثبات أن الرأسمالية موجودة لتبقى، وأن الطبقة العاملة لن تتحرك أبدا، أو أن الحزب الثوري لا يمكن أو لا ينبغي بناؤه، وما إلى ذلك. وبقدر ما يقبل التغيير فإنه يعزوه إلى قوى خارجية. وفي نهاية المطاف، يستسلم للوضع الراهن، لأنه لا يستطيع أن يتخيل أنه يتغير. ولكن في الواقع، التطور أمر حتمي.

يقول هيغل: «لا يوجد شيء في أي مكان، لا في السماء ولا على الأرض، لا يحتوي في داخله على الوجود والعدم»[9]. وبينما لا يقدم لنا هيغل أي أمثلة من السماء فإن الأرض مليئة بالأمثلة على ذلك.

التغيير هو الوضع الأساسي لوجود كل مادة. وكل الأشياء التي تأتي إلى الوجود تحمل في داخلها بذور دمارها. إن هذا الصراع بين القديم والجديد، بين الوجود والعدم، يكمن في جوهر التطور، والرأسمالية ليست استثناء.

إن القوى التي تؤدي إلى سقوط النظام تأتي بالكامل من رحمه، أي البروليتاريا الحديثة. إن أهم ما يميز البروليتاريا هو أنها طبقة لا تمتلك أي ملكية، وهي مضطرة لبيع قوة عملها للرأسماليين من أجل البقاء. وتتناقض مصالحها بشكل مباشر مع الركائز الأساسية للرأسمالية، أي: الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج والدولة القومية. وكل خطوة إلى الأمام في تطور الرأسمالية هي خطوة نحو تحول العمال إلى طبقة

هائلة في مواجهة البرجوازية، مما يمهد لسقوط تلك الطبقة السائدة.

لكن هذه ليست سيرورة خطية وتدريجية. الثورات بالنسبة للرأسماليين هي نتاج لعمل القادة الماكرين والكاريزماتيين الذين يظهرون فجأة على الساحة، تماما مثلما يعتبرون الإضراب نتاجا لعمل "المحرض". إن كل ثورة هي، في الواقع، نتيجة لفترات طويلة من التناقضات الاجتماعية المتصاعدة، حيث تتصادم مصالح الطبقة السائدة مع مصالح البروليتاريا.

طيلة سنوات عديدة يظهر النظام وكأنه راسخ لا يتأثر. بينما يحني العمال رؤوسهم ويقبلون إملاءات أرباب العمل. لكن سواء عاجلا أم آجلا، يتم الوصول إلى نقطة تحول حيث يطلق حدث عرضي العنان لكل الغضب المكبوت: فتنفجر السدود وتغمر الجماهير الساحة السياسية.

الاستقرار الظاهري يفسح المجال أمام الاضطرابات الأكثر حدة. وفي الوقت نفسه، فإن القوى الثورية، التي كانت حتى الأمس القريب معزولة على هامش الحركة العمالية، تجد نفسها فجأة في مركز الصدارة. كل هذا يحدث بطريقة مفاجئة وعنيفة، وبدون سابق إنذار على ما يبدو.

إن الإصلاحيين الذين أهملوا بالأمس الطبقة العاملة بسبب ما يسمى بـ "مستوى الوعي المنخفض" عندها وتنظيمها الضعيف، يصابون بالذهول من أحداث لم يتوقعوها ولا يمكنهم السيطرة عليها. وهذا يكشف فقط عن منظورهم السطحي.

كتب هيغل في فقرة أكد عليها لينين بشدة: «يقال إنه لا توجد قفزات في الطبيعة، والتصور العادي، عندما يتعين عليه تصور نشوء أو فناء ما، يفكر في تصورهما (...) على أنهما نشوء أو اختفاء تدريجي»[10].

في الواقع إن العكس هو الصحيح. التطور ليس مجرد سيرورة خطية أو تدريجية. إنه يتألف، من جهة، من فترات تغيرات كمية وتدريجية صغيرة، تفسح بدورها المجال أمام قفزات نوعية حادة مفاجئة؛ ومن جهة أخرى، التحولات النوعية التي تفسح المجال أمام الانفجارات الكمية.

ويتابع هيغل:

«إن الماء عند تبريده لا يصبح صلبا بشكل تدريجي، شيئا فشيئا، بحيث يصل تدريجيا إلى جليد بعد مروره من حالة اللزوجة، بل يصبح صلبا فجأة؛ وعندما يصل بالفعل إلى نقطة التجمد تماما، قد يبقى (إذا ظل ثابتا) سائلا بالكامل، في حين يؤدي تعريضه لهزة خفيفة إلى وصوله إلى حالة الصلابة»[11].

إن انتقال الكم إلى الكيف والعكس -أو بعبارة أخرى: الطفرات- هو سمة أساسية لكل تطور. ومع ذلك فإنه من أجل فهم القوى الدافعة وراء هذه التحولات والاتجاه الذي سيتخذه التطور، نحتاج إلى تجاوز وجهة نظر "الحس العام". إن ما نحتاجه هو إلقاء نظرة فاحصة على القوى والتيارات الخفية التي لا يمكن رؤيتها على الفور بالعين المجردة.

## تحت السطح

عندما نكون بصدد ممارسة حياتنا اليومية، وبالنظرة السطحية للأشياء، نعتقد أن الأشياء بسيطة وثابتة. نكون متيقنين أن الرجل رجل، والكلب كلب، وهذا هو هذا، وذاك هو ذاك، الخ. لكن وبمجرد أن نركز أنظارنا، يختفي هذا اليقين. ففي بحثنا عن الكلب النموذجي، يجب علينا أن نعترف بعدم وجود شيء من هذا القبيل؛ إذ أن كل الكلاب مختلفة.

حتى لو أخذنا صديقنا الفريد من نوعه، الكلب فيدو، فسنلاحظ أن فيدو اليوم ليس تماما كما كان في الماضي. إنه مختلف تماما عن الجرو الذي صادقناه منذ سنوات، وفي لحظة، سيختلف عن فيدو الآن. وبمجرد أن نحاول الاحتفاظ بالمفاهيم الثابتة والجامدة في أذهاننا، تفلت جميعها من بين أصابعنا وتذوب في عالم متنوع بلا حدود.

يتوقف أنصار فلسفة ما بعد الحداثة عند هذه النقطة ويعلنون أن "الاختلاف" هو جوهر العالم. ويعلنون أن كل شيء مختلف عن كل شيء آخر، وبالتالي فإن مفاهيمنا وتصنيفاتنا العامة هي مجرد "بنيات" خيالية.

لكنهم يتسرعون في إطلاق الأحكام. لأنه بمجرد أن نحول أنظارنا إلى ذلك العالم من الاختلاف الذي لا حدود له، فإن ما سيظهر لنا على الفور هو أنه على الرغم من حالة التغير المستمر لكل شيء، وبوضوح مذهل على جميع المستويات، فإن هناك تكرار الأنماط والقوانين المتشابهة، التي تحكم بيد من حديد.

للوهلة الأولى لا يوجد كلبان متشابهان. ومع ذلك تظهر بعض السمات الأساسية في جميع الكلاب، مما يجعلها كلابا. وعلى الرغم من أن كل خلية وجزيء وذرة في جسم فيدو هي في حالة حركة وتحول مستمرين، فإنه ما يزال هناك شيء متأصل يتجاوز كل حالة عابرة أو عرضية لصديقنا الكلب. إن هوية الأشياء لا توجد بمعزل عن اختلافها، بل من خلالها.

في الفلسفة الأفلاطونية القديمة، كان جوهر الأشياء عبارة عن نماذج أولية مثالية، تقف فوق، أو في مواجهة، العالم النابض بالحياة والمتنوع الذي نعرفه. أما بالنسبة لأنصار ما بعد الحداثة، فإن جوهر الأشياء هو مجرد بنيات عقلية اعتباطية نسقطها نحن البشر على الواقع الخارجي.

وحول هذه المسألة كتب لينين قائلا:

«وبينما يناقش الفلاسفة الصغار

(كانـط، هيـوم، وكل الماخيـين) مـا إذا كان ينبغـي اعتبـار الجوهـر هو الأسـاس أو المعطـى المبـاشر هـو الأسـاس. فـإن هيغـل يضـع "**و**"، ويـشرح المحتـوى الملمـوس لـ "**و**"»[12].

وكـما أثبـت العلـم الحديـث مـرارا وتكـرارا، فـإن جوهـر الأشـياء -أي مـا يجعلهـا عـلى مـا هـي عليـه- هـو مجـرد العلاقـات المتأصلـة بـين الأشـياء نفسـها. إنها الديناميـات الداخليـة للـمادة، التـي تنشـأ وتعـبر عـن نفسـها في الأشـكال والتكوينـات اللانهائيـة التـي تتخذهـا الطبيعـة مـن حولنـا.

أوضـح تشـارلز داروين في نظريتـه عـن التطـور البيولوجـي كيـف تتطـور جميـع الكائنـات الحيـة مـن خـلال الانتقـاء الطبيعـي للطفـرات التـي تزيـد مـن قدرتهـا عـلى البقـاء والتكاثـر. وكتـب قائـلا: «مـن بدايـة بسـيطة جـدا، تطـورت، ومـا تـزال تتطـور، أشـكال لا نهايـة لهـا أجمـل وأروع»[13].

إن قانـون التطـور لا يوجـد بمنـأى عـن الكائنـات الحيـة، بـل هـو أسـلوب تطورهـا. ومـا يميـز البـشر عـن غيرهـم مـن الحيوانـات هـو عـلى وجـه التحديـد قدرتنـا عـلى تجريـد هـذه الجوانـب مـن الأشـياء، الجوانـب التـي لا يمكـن رؤيتهـا مبـاشرة بالعـين المجـردة، للتأمـل فيهـا وبالتـالي التوصـل إلى فهـم أعمـق للظاهـرة ككل. وبعبـارة أخـرى، فـإن أفكارنـا ومفاهيمنـا العامـة هـي مقاربـات (Approximations) للقوانـين والعلاقـات الحقيقيـة التـي تحكـم العـالم.

كلـما تمكنـا مـن التعمـق في الأشـياء، كلـما تمكنـا مـن كشـف علاقاتهـا أكـثر، وكلـما زادت قـدرة أفكارنـا عـلى أن تعكـس جوهـر الأشـياء نفسـها.

وكـما كتـب لينـين فـإن: «الطبيعـة هـي في نفس الوقـت ملموسـة ومجردة، وهـي في نفـس الوقـت ظاهـرة وجوهـر، وهـي في نفـس الوقـت لحظـة وعلاقـة. المفاهيـم الإنسـانية ذاتيـة في تجريدهـا، وانفصالهـا، ولكنهـا موضوعيـة ككل، في السـيرورة، في المجمـوع، في الاتجـاه، في المصـدر»[14].

## التناقض

التفكـير العـادي يتملـك جانبـا واحـدا مبـاشرا مـن الظاهـرة ويضعـه في مواجهـة بقيـة الظاهـرة. وتعتـبر هـذه الطريقـة صحيحـة بالنسـبة للمهـام اليوميـة. لكننـا إذا نظرنـا عـن كثـب، سـنرى أن الطبيعـة ليسـت أحاديـة الجانـب وبسـيطة، بـل هـي متعـددة الجوانـب ومتناقضـة.

إن التجريـدات الأحاديـة الجانـب قـد ماتـت، كـما يـشرح هيغـل، في فقـرة أكـد عليهـا لينـين، إذ يقـول: «لكـن التناقـض هـو أصـل كل حركـة وحيويـة، ولا يمكـن لأي شيء أن يتحـرك ويكـون لـه دافـع ونشـاط إلا بقـدر مـا يحتـوي عـلى تناقـض»[15].

ويضيـف: «الـشيء يتحـرك، ليـس لأنـه هنـا في لحظـة مـن الزمـن وهنـاك في لحظـة أخـرى، بـل لأنـه هـو هنـا وليـس هنـا في نفـس الوقـت، وفي هنـا هـو في نفـس الوقـت موجـود وغـير موجـود»[16]. هـذا هـو مسـار كل حركـة وتطـور.

الديالكتيـك لا يسـتبعد النظـرة الأحاديـة الجانـب للعـالم التـي يقـوم عليهـا التفكـير اليومـي؛ إنـه يسـتوعبها باعتبارهـا أحـد جوانـب الحقيقـة العليـا. فهـو يشـمل جميـع جوانـب الظاهـرة -علاقاتهـا الداخليـة والخارجيـة- ويحملهـا في تناقضهـا ككل معقـد.

وبمجـرد أن نفهـم ذلـك، ينفتـح أمامنـا عـالم جديـد تمامـا. عـالم مترابـط حيـث توجـد الأجـزاء في علاقـة متبادلـة مـع الـكل؛ حيـث يتدفـق الوجـود إلى الفنـاء، والعكـس صحيـح؛ حيـث يتدفـق الكـم إلى كيـف والعكـس صحيـح؛ حيـث تتداخـل الهويـة والاختـلاف مـع بعضهـما البعـض؛ حيـث يخـوض الشـكل والمضمـون صراعـا مسـتمرا؛ حيـث تكـون المبـادئ البسـيطة أسـاس العمليـات الأكـثر تعقيـدا، وهكـذا دواليـك.

وكـما كتـب لينـين «إن شرط معرفـة جميـع سـيرورات العـالم في "حركتهـا الذاتيـة"، وفي تطورهـا التلقـائي، وفي حياتهـا الواقعيـة، هـو معرفتهـا كوحـدة للمتناقضـات»، وأضـاف: «إن التطـور هـو "صراع" المتناقضـات»[17].

## القوانين

كلـما تمكنـا مـن التعمـق في فهـم ظاهـرة مـا، وكلـما تمكنـا مـن تتبـع علاقاتهـا المتناقضـة الداخليـة بشـكل أفضـل، كلـما ظهـرت أمـام أعيننـا أقـل عشـوائية أو اعتباطيـة. وبـدلا مـن ذلـك، فـإن مـا سـيتبلور تدريجيـا هـو مسـار تطورهـا الـضروري، أو بعبـارة أخـرى: مسـار تطورهـا المحكـوم بالقوانـين.

لدينـا هنـا طريقـة لرؤيـة العـالم مختلفة تمامـا عـن التصنيفـات الميتـة للفلسـفة البرجوازيـة. إن النظـرة الديالكتيكيـة لا تعكـس فقـط الخصائـص الخارجيـة للظاهـرة أو مراحلهـا العابـرة، بـل تعكـس مجمـل تطورهـا في مراحلهـا المتعاقبـة، مـن النشـوء حتـى زوالهـا الحتمـي. وهـذا الأسـلوب هـو جوهـر الماركسـية.

# ملخص الديالكتيك

1) تحديد المفهوم انطلاقا من ذاته -ينبغي النظر إلى الشيء ذاته في علاقاته وفي تطوره

2) الطبيعة المتناقضة للشيء في ذاته -الآخر في ذاته- القوى والاتجاهات المتناقضة في كل ظاهرة

3) اتحاد التحليل والتركيب.

من الواضح أن هذه هي عناصر الديالكتيك.

ومن الممكن ربما عرض هذه العناصر بمزيد من التفصيل على النحو التالي

1) موضوعية الاعتبار -لا الأمثلة ولا الاختلافات، بل الشيء في ذاته

2) مجمل العلاقات المتعددة لهذا الشيء مع الأشياء الأخرى

3) تطور هذا الشيء -الظاهرة، على التوالي- حركته وحياته

4) الاتجاهات المتناقضة داخليا -والجوانب- في هذا الشيء

5) الشيء -الظاهرة، الخ- كمجموع ووحدة للمتناقضات

6) الصراع المتكشف على التوالي بين هذه المتناقضات والاتجاهات المتناقضة وما إلى ذلك

7) وحدة التحليل والتركيب - تفكيك الأجزاء المنفصلة والكلية، وجمع تلك الأجزاء

8) إن العلاقات بين كل شيء -الظاهرة، وما إلى ذلك- ليست متعددة فحسب، بل هي عامة وشاملة. كل الأشياء -الظواهر، الخ- مرتبطة مع بعضها البعض

9) ليس فقط وحدة المتناقضات، بل انتقالات كل تحديد، أو نوع، أو سمة، أو جانب، أو خاصية إلى بعضه البعض -إلى نقيضه؟

10) السيرورة التي لا نهاية لها لاكتشاف جوانب وعلاقات جديدة وما إلى ذلك

11) السيرورة التي لا نهاية لها لتعميق معرفة الإنسان بالشيء والظواهر والسيرورات وغيرها، من المظهر إلى الجوهر، ومن الجوهر الأقل عمقا إلى الجوهر الأكثر عمقا

12) من التعايش إلى السببية ومن شكل من أشكال الارتباط والاعتماد المتبادل إلى شكل آخر أعمق وأكثر عمومية

13) التكرار في مرحلة أعلى لبعض السمات والخصائص وما إلى ذلك من المستوى الأدنى و

14) العودة الظاهرية إلى القديم -نفي النفي.

15) صراع المضمون مع الشكل والعكس. التخلص من الشكل، وتحويل المحتوى

16) انتقال الكم إلى كيف والعكس -15 و16 مثالان على 9.

وباختصار يمكن تعريف الديالكتيك بأنه مذهب وحدة المتناقضات. وهذا يجسد جوهر الديالكتيك، لكنه يحتاج إلى شرح وتطوير

صفحة من ملاحظات لينين على علم المنطق لهيغل

كتب لينين:

«في كتابه "رأس المال"، يحلل ماركس أولا العلاقة اليومية الأبسط والأكثر اعتيادية وجوهرية والأكثر شيوعا في المجتمع (السلعي) البرجوازي، وهي علاقة تمت مواجهتها مليارات المرات، أي تبادل السلع. في هذه الظاهرة البسيطة جدا (في "خلية" المجتمع البرجوازي هذه) يكشف التحليل كل تناقضات (أو بذور كل تناقضات) المجتمع الحديث.

ويبين لنا العرض اللاحق تطور (كلا من نمو وحركة) هذه التناقضات وهذا المجتمع في [مجموع] أجزائه الفردية. من بدايته إلى نهايته. (...) يجب أن يكون هذا أيضا منهج عرض (أي دراسة) الديالكتيك بشكل عام (لأن ديالكتيك المجتمع البرجوازي عند ماركس ليس سوى حالة خاصة من الديالكتيك)»[18].

تطبيق المنهج الديالكتيكي مكن ماركس من الكشف عن قوانين الرأسمالية. وعلى هذا الأساس، تمكن من التنبؤ بدقة، وبشكل عام، بمجمل التطور الذي عرفه المجتمع الرأسمالي بعد وفاته؛ وهو التطور الذي يؤدي بالضرورة إلى وصول البروليتاريا إلى السلطة وإلغاء الملكية الخاصة والدولة القومية.

وعلى أساس المنظور الذي وضعه ماركس وإنجلز في البداية -وهو منظور يرتكز على دراسة التاريخ البشري، والذي تثبت صحته يوما بعد يوم- يقوم برنامجنا نحن الشيوعيون.

ومن ثم، كتب لينين، فإنه: «من المستحيل فهم كتاب ماركس "رأس المال" وخاصة الفصل الأول منه بشكل كامل، دون دراسة وفهم كامل منطق هيغل برمته. وبالتالي، وبعد نصف قرن لم يفهم أحد من الماركسيين ماركس!!»[19].

## قراءة هيجل بالطريقة الصحيحة

لقد طور هيغل ببراعة العرض الأكثر شمولا للديالكتيك باعتباره علم الحركة والتغيير. وما تزال أفكاره، حتى يومنا هذا، تقف فوق كل المذاهب الفلسفية الرسمية للطبقة الرأسمالية.

لكن الديالكتيك اتخذ على يد هيغل شكلا صوفيا ومثاليا. إذ أن الديالكتيك عند هيغل لم يكن القوانين المتأصلة لتطور الطبيعة، بل قوانين تطور ما أسماه الروح المطلقة أو الفكرة المطلقة. كتب قائلا إن الفكرة "تصبح خالقة الطبيعة"، وهي الفكرة التي يكتفي لينين بالرد عليها بقوله: "ها ها!"[20].

بالنسبة لهيغل، فإن التصنيفات المنطقية، مثل الوجود، والعدم، والصيرورة، والكم، والكيف، والجوهر، والمظهر، وما إلى ذلك، لها وجود مستقل باعتبارها الأجزاء المكونة لتلك الفكرة الشاملة، والتي بدورها عبرت عن نفسها من خلال الطبيعة. وبمجرد أن تتجلى في الطبيعة، يجد المطلق أسمى أشكاله في الفكر العقلاني، ويبلغ ذروته مع الفلسفة الهيغلية نفسها.

لقد أصر هيغل على الأولوية المطلقة للفكر المجرد على النشاط البشري. وبقدر ما أدرج النشاط كعنصر أساسي في منطقه، فقد كان ذلك في المقام الأول صنفا منطقيا. وهو يصر طوال كتابه "المنطق" على أنه يجب على القارئ أن يترك العالم الخارجي وراءه ويبقى في عالم "الفكر الخالص".

ومع ذلك، فقد اضطر مرارا وتكرارا إلى الاتجاه نحو المادية، بمنطقه الخاص، ومن أجل إثبات وجهة نظره. وكما لاحظ لينين فإنه: «في أعمال هيغل الأكثر مثالية، هناك أقل ما يمكن من المثالية وأكثر ما يمكن من المادية. هذا متناقض، لكنه حقيقي!»[21].

كان هيجل ينتمي إلى معسكر المثالية الفلسفية التي ترى أن العقل هو المكون الأساسي للواقع، وأن العالم الخارجي هو، بشكل أو بآخر، اشتقاق أو انعكاس للعقل. تقع جميع الأديان في معسكر المثالية الفلسفية، ولم يخف هيغل أنه كان يصوغ نظاما دينيا.

نحن الماركسيون ماديون فلسفيون. نحن، وعلى عكس المثاليين، نعتقد أن هناك عالما واحدا فقط، وهو العالم المادي الذي يمكننا الشعور به والتفاعل معه. العقل البشري هو نتاج لهذا العالم المادي وأفكارنا هي مجرد انعكاسات له.

كتب لينين: «أنا بشكل عام أحاول قراءة هيغل قراء مادية. هيغل هو المادية التي تم قلبها رأسا على عقب... -أي أنني في معظم الأحيان ألقيت جانبا الله، والمطلق، والفكرة الخالصة، وما إلى ذلك»[22].

كان في مقدور لينين أن يفعل ذلك لأن مفهوم الفكرة المطلقة لا يلعب أي دور أساسي في الجوانب الجوهرية لأفكار هيغل. بل إنه في الواقع، وكما لاحظ فريدريك إنجلز، "لم يقل أي شيء مطلقا"[23] عن الفكرة المطلقة.

لا يعتقد الماركسيون أن للديالكتيك أي وجود منفصل عن الطبيعة. إن قوانين الديالكتيك ليست قوانين الأفكار، بل هي تعكس القوانين المتأصلة في الطبيعة نفسها على المستوى الأكثر عمومية. ومن خلال تفاعلنا مع العالم، نصير نحن البشر قادرين على اكتشاف تلك القوانين على مستويات أعمق وأعمق. هذا هو أساس الفلسفة الماركسية: المادية الديالكتيكية.

كتب لينين: «المنطق ليس علم الأشكال الخارجية للفكر، بل هو علم قوانين تطور جميع الأشياء المادية والطبيعية والروحية، أي تطور كامل المحتوى الملموس للعالم ومعرفته، أي المجموع الكلي، خلاصة تاريخ معرفة العالم»[24].

لقد كان من أعظم إنجازات ماركس وإنجلز إنقاذ الديالكتيك من أغلال مثالية هيغل الميتة و"قلبه رأسا على عقب". وبينما يتأكد ديالكتيك الطبيعة يوميا بفضل تقدم العلم والثقافة، فإن مثالية هيغل -أي روحه المطلقة- تظل مجرد هيكل خارجي هامد، والذي كان لا بد من سقوطه حتى يتمكن الكائن الحي الحقيقي الموجود تحته من الاستمرار في التطور.

## النظرية والتطبيق

من أين تأتي الأفكار؟ هذه الأوهام الساحرة تتجول في عوالمنا الداخلية؛ لقد تم نسيان أصولها المحددة منذ فترة طويلة، وبالتالي فمنذ آلاف السنين أضفى عليها الناس صفات صوفية. في المثالية، تقف الأفكار في وجه البشر كقوى جبارة تقف فوق الطبيعة والمجتمع.

لكن الأفكار ليس لها وجود مستقل. كما أنها ليست، كما يتخيل المثاليون الذاتيون، حواجز لا يمكن اختراقها بين البشر وبين العالم الخارجي. العقل هو وظيفة تنظيمية لجنسنا البشري، والذي من خلال العمل يسد الفجوة بيننا وبين الطبيعة المحيطة بنا.

وكما يشرح ماركس فإن: «إنتاج الأفكار، والتصورات، والوعي، يتشابك في البداية بشكل مباشر مع النشاط المادي والتواصل المادي بين الناس، لغة الحياة الواقعية»[25]. ومن تفاعلنا المستمر مع العالم من حولنا، أو ما يسميه ماركس بـ"الأيض (Metabolism) بين الإنسان والطبيعة"، تنشأ مفاهيم تسمح لنا بفهم محيطنا وتكييفه مع احتياجاتنا. ومن خلال قيامنا بذلك فإننا نغير أنفسنا أيضا. إن أفكارنا، مثلها مثل مقولات المنطق، ليست ظواهر فوق

الطبيعة؛ إنها تعكس فقط الطبيعة نفسها، وتكمن أصولها في النشاط الاجتماعي البشري.

يقول لينين: «إن الفعل والممارسة، بالنسبة لهيغل، هما "قياس منطقي"، شكل من أشكال المنطق. وهذا صحيح! ليس بالطبع، بمعنى أن شكل المنطق له وجوده الآخر في ممارسة الإنسان (= المثالية المطلقة)، بل العكس صحيح: ممارسة الإنسان، التي تكرر نفسها ألف مليون مرة، تصبح راسخة في وعي الإنسان من خلال صور المنطق. وعلى وجه التحديد (وفقط) بسبب هذا التكرار الذي يصل إلى ألف مليون مرة، تتمتع هذه الصور بثبات المسلمة، والطابع البديهي»[26].

وبعبارة أخرى، فإن الطابع الديالكتيكي للفكر الذي رسمه هيغل في منطقه هو مجرد انعكاس للطبيعة التي يتفاعل معها الناس. يقول لينين مستشهدا بهيغل: «الطبيعة، هذا الكل المباشر، تتكشف في الفكرة المنطقية». ويمضي فيقول:

«المنطق هو علم الإدراك. إنه نظرية المعرفة. والمعرفة هي انعكاس الطبيعة عند الإنسان. لكن هذا ليس بسيطا، وليس تفكيرا فوريا، وليس تفكيرا كاملا، بل سيرورة سلسلة من التجريدات، وتكوين وتطوير المفاهيم والقوانين وما إلى ذلك، وهذه المفاهيم والقوانين وما إلى ذلك، (الفكر، العلم = "الفكرة المنطقية") تحتضن بشكل مشروط، تقريبا، الطبيعة العامة التي يحكمها القانون للطبيعة المتحركة والمتطورة إلى الأبد»[27].

ومن خلال آلاف السنين من التجربة والخطأ، قمنا بتطوير أفكار ومفاهيم عامة تغوص بشكل أعمق في جوانب مختلفة من الطبيعة، وهي الأفكار التي أصبحت الجوهر المركز للتجربة الإنسانية. والديالكتيك هو الإنجاز الأعظم لهذا التطور حتى الآن.

لكن المعرفة ليست تيارا أحادي الاتجاه، يطبع نتائج أنشطتنا في أدمغتنا. هناك أيضا سيرورة عكسية متزامنة: فبعد استنتاج جوانب مختلفة من العالم الذي تحكمه القوانين، يسمح لنا الفكر المجرد بأن نتأمل في أفكارنا ونعمقها من أجل تحسين ممارساتنا بشكل أكبر في المستقبل.

ففي الممارسة، في آخر المطاف، حيث تواجه أفكارنا العالم الموضوعي الذي نسعى إلى تغييره. ومن خلال هذه السيرورة تكتسب طابعها الموضوعي: «وحدة الفكرة النظرية (المعرفة) والممارسة -هذه ملحوظة- وهذه الوحدة على وجه التحديد في نظرية المعرفة، لأن النتيجة هي [الفكرة الموضوعية]»[28].

لا تمثل النظرية، بالنسبة لضيقي الأفق، إلا نوعا من الفضول في أحسن الأحوال. لكن التفاعل الديالكتيكي بين النظرية والممارسة، الذي يؤدي أحدهما إلى الآخر، هو الذي يميز «السيرورة اللانهائية لتعميق معرفة الإنسان بالشيء، بالظواهر والسيرورات، وما إلى ذلك، من المظهر إلى الجوهر، ومن جوهر أقل عمقا إلى جوهر أكثر عمقا»[29].

وهذه سيرورة تعزز وتوسع في الوقت نفسه سيطرة الإنسان على الطبيعة. فكلما زادت معرفتنا بالقوانين التي تحكم عالمنا، كلما تمكنا من تحقيق أهدافنا وتطلعاتنا بكفاءة أكبر. وهنا نرى أهمية النظرية بالنسبة للشيوعيين.

وكما أوضح تروتسكي فإن:

«الأكثر حزما وصرامة وتوازنا هو الذي يرى النظرية بكونها دليلا للعمل. يمكن لمتشككي الصالونات أن يسخروا من الطب دون عقاب، لكن الجراح لا يمكنه أن يعيش في جو من عدم اليقين العلمي. وكلما تعاظمت حاجة الثوري إلى النظرية بكونها دليلا للعمل، كلما زاد عناده في الدفاع عنها. لم يكن فلاديمير أوليانوف يثق في الهواة وكان يكره الدجالين. إن ما كان يقدره قبل كل شيء في الماركسية هو الانضباط الصارم وقوة منهجها»[30].

## انتصار التوقع على الدهشة

لقد عرّف تروتسكي النظرية الماركسية ذات مرة بأنها ميزة انتصار "التوقع على الدهشة". وقد كانت هذه القدرة على التوقع والفهم العميق على وجه التحديد هو ما سمح للينين والبلاشفة بالانتصار في مواجهة المصاعب الشديدة من جميع الجهات.

كان البلاشفة في بداية الحرب العالمية الأولى -من حيث القوة والنفوذ والموارد- أحد أضعف التيارات السياسية في أوروبا. وتحت تأثير موجة النزعة الوطنية التي أثارتها السلطات القيصرية وما نتج عنها من مزاج الوحدة الوطنية، فقد الحزب أغلبية قاعدة دعمه بين الطبقة العاملة الروسية. الموجة الثورية التي كانت تختمر في روسيا قبل الحرب تعرضت للإجهاض على الفور وتعزز موقف النظام القيصري مؤقتا.

ومرة أخرى دفعت العناصر الثورية إلى الهامش. ومما زاد الطين بلة، أن العديد من أفضل العمال أرسلوا إلى الجبهة عقابا لهم على أنشطتهم في المصانع وأماكن أخرى. كان معظم القادة البلاشفة الرئيسيين في المنفى في أوروبا، حيث انقطعت خطوط الاتصال أو تعطلت بشدة بسبب الحرب.

كانت الردة الرجعية ترفع رأسها وتكتسح الساحة في كل مكان في أوروبا، وكانت الطبقة العاملة في تراجع. كان البرجوازيون في أوروبا، المسلحين بالبنادق والدبابات والقنابل، يدمرون كل ما يقف في طريقهم، وكانوا يرمون جانبا بكل من يقف في طريقهم أو يرسلونه إلى الجبهة ويقضون عليه إذا لزم الأمر. وفي الوقت نفسه، بدا أن القادة الاشتراكيين الديمقراطيين الأوروبيين، الذين تجندوا خلف طبقاتهم السائدة، يجلسون بشكل

مريح في حضن أسيادهم البرجوازيين.

بالنسبة للبلاشفة، بمواردهم المالية الضعيفة، وأجهزتهم الضعيفة أو المعدومة، ومنظماتهم الحزبية التي كانت في حالة من الفوضى الكاملة بسبب الحرب، كانت فكرة الاستيلاء على السلطة تبدو بعيدة المنال أكثر من أي وقت مضى. ومع ذلك، فبعد ما يزيد قليلا عن ثلاث سنوات من بدء الحرب، تحول كل ذلك إلى نقيضه، فإذا بالحزب البلشفي يقود العمال والفلاحين في روسيا إلى السلطة في ثورة أكتوبر عام 1917. لا يمكن تصور عرض للديالكتيك أعظم من ذلك!

نرى هنا قوة الأفكار في الممارسة العملية. يمكن اختزال نجاح البلاشفة في نجاح المنهج الماركسي، في منهج المادية الديالكتيكية.

أصر لينين والبلاشفة على الموقف الطبقي العمالي ورفضوا تقديم أدنى تنازل للنزعات الشوفينية الوطنية التي أنتجتها الحرب في جميع أنحاء أوروبا. وبينما أدت الحرب في البداية إلى تعزيز موقف الطبقة السائدة، فإنها أصبحت فيما بعد أكبر قوة دافعة للثورة من خلال إبراز التناقضات الطبقية بشكل حاد في المجتمع.

وهكذا فإن الرسالة الثورية للبلاشفة، التي لم تلق أي صدى شعبي على الإطلاق في الأيام الأولى للحرب، أصبحت صرخة تعبئة الجماهير الروسية، ونشرت الرعب بين الطبقات السائدة في العالم.

الانتهازية هي التخلي عن المنظور طويل المدى لصالح أهداف فورية قصيرة المدى. أما الديالكتيك فهو علم تجاوز الوضع المباشر وفهم السيرورات المعقدة والممتدة في مجملها. لقد كان التفاني في الدفاع عن النظرية والتمكن من الديالكتيك هو الذي أعطى لينين ميزة كبيرة على أعدائه.

في السياسة، يؤدي الافتتان بالمظهر المباشر للأشياء إلى إطلاق شعارات انتهازية و"الافتتان بأضيق أشكال النشاط العملي". لكن لينين والبلاشفة تجاوزوا المظاهر وعالجوا جوهر الأشياء، بغض النظر عن تأثيرها المباشر على الحزب، لأنهم كانوا يعلمون أن الحقيقة وحدها هي التي ستقربهم في النهاية من انتصار الطبقة العاملة. وكان هذا هو مفتاح نجاحهم.

وقد لخص ليون تروتسكي جوهر الأمر قائلا:

«إنها لتجربة تاريخية أن أعظم ثورة في التاريخ لم تكن بقيادة الحزب الذي بدأ بالقنابل، بل بقيادة الحزب الذي بدأ بالمادية الديالكتيكية»[31].

## مراجع وهوامش:


1: V I Lenin, "Conspectus of Hegel's Book 'The Science of Logic'", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 176

2: L Trotsky, "How Lenin Studied Marx", Fourth International, Vol.11, No.4, July-August 1950, pg 126

3: V I Lenin, What is to be done?, Wellred Books, 2018, pg 26

4: V I Lenin, "One Step Forward, Two Steps Back", Lenin Collected Works, Vol. 7, Progress Publishers, 1961, pg 412

5: V I Lenin, "Conspectus of Hegel's Book 'The Science of Logic'", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 171

6: G W F Hegel, The Science of Logic, Cambridge University Press, 2010, pg 60

7: V I Lenin, "Conspectus of Hegel's Book 'The Science of Logic'", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 110

8: ibid. pg 141

9: G W F Hegel, The Science of Logic, Cambridge University Press, 2010, pg 61

10: V I Lenin, "Conspectus of Hegel's Book 'The Science of Logic'", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 123

11: ibid. pg 124

12: ibid. pg 134

13: C Darwin, The Origin of Species, P F Collier and Son, 1909, pg 529

14: V I Lenin, "Conspectus of Hegel's Book 'The Science of Logic'", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 208

15: ibid. pg 139

16: G W F Hegel, The Science of Logic, Cambridge University Press, 2010, pg 382

17: V I Lenin, "On the Question of Dialectics", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 360

18: ibid. pg 360-361

19: V I Lenin, "Conspectus of Hegel's Book 'The Science of Logic'", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 180

20: ibid. pg 174

21: ibid. pg 234

22: ibid. pg 104

23 : F Engels, "Ludwig Feuerbach and the End of Classical German Philosophy", Karl Marx Frederick Engels Collected Works, Vol. 26, Progress Publishers, 1990, pg 360

24: V I Lenin, "Conspectus of Hegel's Book 'The Science of Logic'", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 92-93

25: K Marx, The German Ideology, International Publishers, 1947, pg 13-14K Marx, The German Ideology, International Publishers, 1947, pg 13-14

26 : V I Lenin, "Conspectus of Hegel's Book 'The Science of Logic'", Lenin Collected Works, Vol. 38, Progress Publishers, 1961, pg 217

27 : ibid. pg 182

28 : ibid. pg 219

29: ibid. pg 222

30: L Trotsky, "How Lenin Studied Marx", Fourth International, Vol.11, No.4, July-August 1950, pg 127

31 : L Trotsky, In Defence of Marxism, Wellred Books, 2019, pg 106

# لينين والنضال ضد «الأوبلوموفية» من أجل الممارسة الثورية

**حظيت رواية إيفان غونشاروف الشهيرة «أوبلوموف» التي صدرت عام 1859 بشعبية كبيرة في روسيا باعتبارها رواية عن الأرستقراطية المحتضرة. كان لينين مغرما بتلك الرواية وكان كثيرا ما يستشهد بها. يستكشف بن غلينيكي في هذا المقال ظاهرة «الأوبلوموفية»، وكيف استخدمها لينين سلاحا ثقافيا لطرد النزعة المحافظة والخمول من الحركة الثورية في روسيا.**

رسم لأوبلوموف من أجل الإصدار 1885 من الرواية

في رسالة بعثها إلى بوغدانوف، في فبراير 1905، زمجر فلاديمير لينين قائلا: «لقد سئمت جدا من هذا المماطلة. حبذا لو أنهم يفعلون شيئا ما... بدلا من الاكتفاء بالحديث عنه»[1].

كان غضب لينين موجها نحو الجمود الضيق الأفق لقيادة الحزب البلشفي عندما واجهوا الأحداث الثورية عام 1905.

وبالفعل فإن لينين استمر منذ عام 1902، مع نشر كتابه "ما العمل؟"، يشن الحرب على النزعة المحافظة، والتردد، والقلق، والحذر الشديد بين الثوريين الروس. وطالب باتخاذ إجراءات واعية وحاسمة لدفع الحركة الثورية إلى الأمام.

وفي تلك المعركة كان لينين يناضل ضد سمات "الشخصية التي تمثل الحياة الروسية"، والتي أصابت، من وجهة نظره، كل طبقات المجتمع الروسي، أي: شخصية إيليا إيليتش أوبلوموف

## صورة لطبقة عديمة الفائدة من الناحية الاجتماعية

تُعد رواية إيفان غونشاروف، "أوبلوموف"، التي كتبها عام 1859، صورة مسلية لشخص هامشي تافه عديم الفائدة اجتماعيا، من طبقة النبلاء في روسيا القيصرية. تمت قراءة الرواية على نطاق واسع في روسيا، بما في ذلك من طرف لينين، الذي ولد بعد 11 عاما على نشرها.

كانت الرواية ناجحة إلى درجة أن "الأوبلوموفية" أصبحت مصطلحا شائعا يدل على الخمول غير المنتج، وهو الأمر الذي كان لينين مصمما على تطهير الحركة الثورية منه

مصدر الأوبلوموفية هو طبقة ملاك الأراضي المفلسة تاريخيا والطفيلية في روسيا. وكما شرح لينين فقد تسرب العفن الذي سيطر على تلك الطبقة الاجتماعية المتدهورة إلى بقية المجتمع الروسي

أبلوموف في الرواية، هو مالك أرض صغير لم يشتغل ولو يوما واحدا في حياته. يدور أحد الفصول الأولى من الرواية حول حلم يقظة أبلوموف عن شبابه في الضيعة الريفية التي تملكها عائلة أوبلوموف، والتي تتميز بالجمود والخمول

ورث أوبلوموف تلك الصفة من والده الذي «لم يكن خاملا... بل كان يجلس عند النافذة طوال الصباح، يراقب بحذر كل ما يحدث في الفناء»[2]. أما والدة أوبلوموف: «فقد أمضت ثلاث ساعات تشرح لأفيركا، الخياط، كيفية صنع سترة... وتراقب أفيركا لكيلا يسرق أي قطعة قماش»[3]. هذه هي

فكـرة صغـار مـلاك الأراضي عـن العمـل: مراقبـة الآخريـن وهـم يعملـون لصالحهـم.

عندمـا كان أبلومـوف طفـلا، كان كثـيرا مـا يغـادر المدرسـة لأسـباب زائفـة، أو لمجـرد شـغف والدتـه بـه. كانـت المدرسـة، مثلهـا مثل العمـل، بمثابـة عـبء مؤسـف عـلى حياتـه. كانـت عائلـة أوبلومـوف «تتصـور الحيـاة عـلى أنهـا مجـرد مثـال للسـلام والخمـول، تكدرهـا مـن وقـت لآخـر جميـع أنـواع الحـوادث غـير السـارة، مثـل المـرض، وفقـدان المـال، والمشـاجرات، وأحيانـا بالصدفـة: العمـل»[4].

كان أوبلومـوف يشـعر بالحنـين إلى ذلـك السـكون والكسـل في شـبابه. كان يريـد أقـل قـدر ممكـن مـن التغيـير والمطبـات في الحيـاة. «كل مـا تـم القيـام بـه في زمـن والـد أبلومـوف، كان قـد تـم القيـام بـه في زمـن جـده وجـده الأكـبر، وربمـا مـا يـزال يتـم القيـام بـه. وبالتـالي فـما الـذي كان عليهـم أن يقلقـوا بشـأنه أو يتحمسـوا لـه، أو أن يتعلمـوا منـه؟ ومـا هـي الأهـداف التـي كان عليهـم أن يسـعوا إلى تحقيقهـا؟ لم يكونـوا يريـدون شـيئا: الحيـاة تتدفـق أمامهـم، مثـل نهـر هـادئ، وكل مـا بقـي لهـم هـو الجلـوس عـلى ضفـة ذلـك النهـر والمراقبـة»[5].

لم يسـتمتع بتعليمـه. "القـراءة الجـادة أرهقتـه"[6]. وكان غرضـه مـن الدراسـة هـو فقط الحصـول عـلى منصـب في الوظيفـة الحكوميـة في سـان بيترسـبورغ. لكـن بعـد فـترة قصـيرة، وجـد أبلومـوف أن وظيفتـه صارمـة للغايـة: لقـد أرعبتـه وأصابتـه بالملـل الشـديد»، ولذلـك اسـتقال ليعيـش في بيترسـبورغ عـلى الدخـل الـذي يجنيـه مـن ممتلكاتـه، التـي تبعـد عـدة آلاف مـن الأميـال[7].

لكـن ممتلكاتـه، ولسـوء الحـظ، كانـت في حاجـة ماسـة إلى الإصـلاح. وقـد أدت سـنوات طويلـة مـن الإهـمال إلى تضـاؤل المداخيـل وانهيـار البنيـة التحتيـة. كانـت هنـاك حاجـة إلى مدرسـة وطريـق. وكان منـزل أوبلومـوف نفسـه في حالـة سـيئة.

إن نفـور أوبلومـوف مـن التغيـير، أو الإصـلاح، أو العمـل مـن أي نـوع، يعنـي أنـه كان عاجـزا بشـكل كامـل عـن حـل المشـكلات التـي تواجـه ممتلكاتـه. كان التقـدم والتحديـث غريبـان عنـه. إن العـالم الـذي حـوّل أوبلومـوف إلى الرجـل الـذي هـو عليـه، كان يواجـه الانقـراض بسـبب أوجـه القصـور والإخفاقـات التـي أحدثهـا فيـه.

وفي مواجهـة التدهـور البطـيء لعـالم أوبلومـوف، يوجـد عـالم صديقـه سـتولز، الـذي كانـت تربيتـه صارمـة ومنضبطـة، وهـو مجتهد ومتطلـع إلى الأمـام. يتـم تقديـم سـتولز عـلى أنـه المسـتقبل المـشرق، الـذي يعتمـد عـلى التجـارة الخارجيـة والعمـل المنتـج، والـذي يحـاول يائسـا إخـراج صديقـه أوبلومـوف مـن خمولـه، لإنقـاذه رغـما عنـه.

ومـن أجـل تحقيـق تلـك الغايـة، قـدم سـتولز أوبلومـوف لصديقتـه أولغـا، التـي رأت في أوبلومـوف شـخصا يمكنهـا إنقـاذه مـن أعماق السـلبية التـي يوجـد فيهـا. لكنهـا وعلى الرغـم مـن بذلهـا لقصـارى جهدهـا، فقـد توصلـت في النهايـة إلى أن ذلـك مسـتحيل. فقالـت لأوبلومـوف بغضـب: «إن مـا فعلتـه معـك كان مـن الممكـن أن يبـث الحيـاة في الحجـر»[8]. «لقـد ظننـت أننـي سـأعيدك إلى الحيـاة... بينـما أنـت ميـت منـذ زمـن بعيـد»[9].

كان أوبلومـوف محكومـا بالتناقضـات التـي ميـزت تربيتـه وموقعـه الاجتماعـي. وبالتـالي فـإن قـوة إرادة أولغـا وطلباتهـا وتوسـلاتها، لا جـدوى منهـا في القضـاء عـلى تلـك السـيرورة التاريخيـة.

مـا يصـوره غونشـاروف في هـذه الروايـة هـو الأرسـتقراطية الروسـية المحتـضرة. إنهـا ليسـت ضحيـة كارثـة خارجيـة، بـل هـي ضحيـة لمنطـق سـيروراتها الداخليـة الخاصـة. وهـؤلاء الذيـن خلقتهـم هـم الذيـن سـيشرفون حتـما عـلى تدميرهـا.

يقـدم غونشـاروف رؤيـة رائعـة حـول انحطـاط القيصريـة الروسـية. وبعـد 60 عامـا مـن نشر كتابـه، سـيتم أخيرا إزالـة تلـك الجثـة المتعفنـة مـن مسرح التاريـخ، ليـس مـن قبـل البرجوازيـة الروسـية، التـي أثبتـت أنهـا أضعف مـن أن تتمكـن مـن القيـام بتلـك المهمـة، بـل مـن قبـل العـمال والـفلاحين الـروس، بقيـادة لينـين والحـزب البلشـفي

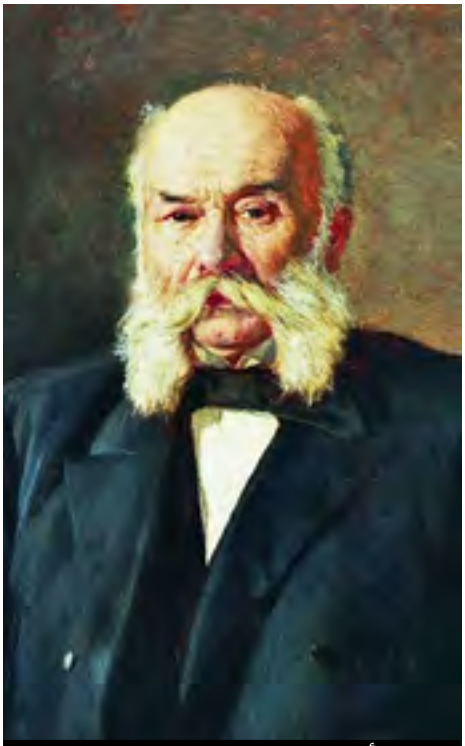

إيفان ألكسندروفيش غونشاروف، رسم نكولاي ياروشينكو. 1888

## ما العمل؟

لقـد دخلـت أوبلوموفيـة الطبقـة الأرسـتقراطية الروسـية كل مسـام المجتمـع الـروسي، وفقـا للينـين. سـبق لماركـس وإنجلز أن أوضحـا منـذ فـترة طويلـة، أن «الأفـكار السـائدة في أي عصر هـي أفـكار الطبقـة السـائدة»[10]. وكانـت الطبقـة السـائدة المتقيحـة تـنشر سـمومها إلى العـمال والـفلاحين في روسـيا

وقـد كانـت تلـك السـمات الأبلوموفيـة داخـل الحركـة الثوريـة، هـي المـرض الـذي شرع لينـين في شـن نضـال لا يرحـم ضـده خلال السـنوات الأولى مـن القـرن العشريـن

في عـام 1903، انقسـم حـزب العـمال الاشتراكي الديمقراطـي الـروسي إلى فصيلـين: البلاشـفة والمناشـفة. كان السـبب المبـاشر للانقسـام هـو بعـض المسـائل التنظيميـة الثانويـة. إلا أن مـا كان يكمـن وراء ذلـك الانقسـام حقـا هـو أن الحـزب كان يحـاول الانتقـال مـن حيـاة الحلقـات الصغـرى الجنينيـة إلى العمـل التحـريضي الأوسـع، الـذي يتطلـب الهيكلـة والانضبـاط والسـيرورات الثابتـة ومعـايير العضويـة الواضحـة. تبنـى لينـين والبلاشـفة ذلـك التغيـير نحـو الاحتراف، في حين تشـبث المناشـفة بـروتين الحلقـات الصغـرى القديمـة والأسـاليب المحافظـة

كتب لينين في عام 1904: «بالنسبة لأولئك الذين اعتادوا على الملابس الفضفاضة والنعال التي كانت تلبسها أسرة أوبلوموف، تبدو القواعد الرسمية ضيقة ومقيدة ومزعجة وتافهة وبيروقراطية، وكأنها رباط عبودية وقيود على حرية الصراع الأيديولوجي. لا تستطيع الفوضوية الأرستقراطية أن تفهم أن هناك حاجة إلى قواعد رسمية وذلك على وجه التحديد من أجل استبدال الروابط الضيقة للحلقات برابط الحزب الاوسع»[11].

يشير لينين هنا إلى أوبلوموف في الثلث الأول من رواية غونشاروف، حيث يتسكع بطل الرواية في شقته مرتديا ثوبه. وأمام الفواتير التي يجب عليه دفعها، والتهديد بالطرد من شقته، وخراب ضيعته، يكتفي أوبلوموف بالتذمر، ويماطل، ويحلم، ويلوم الآخرين على مشاكله. لا يتخذ أي إجراء عملي، فهو ببساطة يفكر في أفكار عظيمة دون أن يفعل شيئا حيالها

لم يكن المناشفة وحدهم هم الذين أصيبوا بهذه النزعة "الأوبلوموفية". فخلال الأحداث الثورية التي وقعت عام 1905 في روسيا، أثبت العديد من البلاشفة أيضا أنهم ضيقو الأفق، وغير حاسمين، ومتحفظين.

ومثلما كان أوبلوموف يفضل الأمان في عدم الحركة على عكس عقلية ستولز النشيطة، كذلك كان البلاشفة، في عام 1905، يخشون الاستناد إلى الصراع الطبقي المتوسع والمتصاعد، مفضلين لجانهم الصغيرة ومجموعات القراءة الضيقة. كتب لينين:

«يجب على الثوري المحترف أن يبني عشرات العلاقات الجديدة في كل منطقة، وأن يضع كل العمل بين أيديهم أثناء وجوده معهم، وأن يعلمهم ويرفعهم إلى مستوى الهدف، ليس عن طريق إلقاء المحاضرات عليهم، بل عن طريق العمل. ثم عليه أن يذهب إلى مكان آخر وبعد شهر أو شهرين يعود للاطمئنان على الشباب الذين حلوا محله. أؤكد لكم أنه يوجد بيننا نوع من الخوف الغبي والتافه والأوبلوموفي من الشباب. أناشدكم: حاربوا هذا الخوف بكل قوتكم»[12].

استمر نضال لينين ضد "الأوبلوموفية" حتى عام 1917. لقد طالب بتبني سياسة واضحة بدلا من ذلك النهج المشوش الذي اتبعه ستالين في التعامل مع الحكومة المؤقتة بعد ثورة فبراير. وأدان بشدة ذلك الموقف الجبان والمتردد وغير الحاسم الذي أبداه زينوفييف وكامينيف، اللذين شعرا بالخوف عشية الانتفاضة.

إن الخوف كذريعة لعدم اتخاذ إجراء حاسم هو تخصص أوبلوموف:

«"الآن أو أبدا! أكون أو لا أكون! " هكذا فكر أبلوموف ورفع نفسه عن كرسيه قليلا، لكنه لم يجد نعليه على الفور، فعاد للجلوس مرة أخرى»[13].

ولولا النضال الحازم ضد ذلك التردد المسبب للإعاقة لدى البلاشفة، لما كانت ثورة أكتوبر لتحدث على الأرجح.

لكن حتى الثورة الروسية لم تكن كافية لإزالة كل آثار "الأوبلوموفية" من المجتمع الروسي، الذي ظل مثقلا بالتخلف الاقتصادي وبطء وتيرة الحياة الريفية.

قال لينين في عام 1922: «لقد شهدت روسيا ثلاث ثورات، لكن الأوبلوموفيون استمروا على قيد الحياة، إذ لم يكن الأوبلوموفيون موجودين بين ملاك الأراضي فحسب، بل أيضا بين الفلاحين؛ وليس فقط بين الفلاحين، بل بين المثقفين أيضا؛ وليس فقط بين المثقفين، بل أيضا بين العمال والشيوعيين»[14].

لقد كانت الأوبلوموفية أحد أعراض تخلف المجتمع الروسي، والتي كانت مصدر صعود البيروقراطية داخل جهاز الدولة وفي نهاية المطاف داخل الحزب البلشفي نفسه. لقد أدرك لينين أن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو كسر عزلة الثورة ونشرها في البلدان الرأسمالية المتقدمة كوسيلة لتطوير القوى المنتجة بأسرع ما يمكن. إلا أنه عمل في نفس الوقت على خوض الصراع لكبح آفة الأوبلوموفية لأطول فترة ممكنة.

ولم تكن تلك مهمة صغيرة. فبعد الثورة، بدأ جهاز الدولة يتضخم بشكل سريع. وبحلول عام 1922 كان هناك 243.000 موظف حكومي في موسكو **وحدها**. وباستثناء أخذهم لأجورهم لم يكن من الواضح بالضبط ما كان كل هؤلاء الموظفين يفعلونه.

كان هناك، حسب لينين، الكثير من الخمول، وعدم الكفاءة، والمماطلة في الدولة السوفياتية. وأصر على التخلص من ذلك.

قال: «إن أسوء عدو داخلي لنا هو البيروقراطي -الشيوعي الذي يشغل منصبا سوفياتيا مسؤولا (أو غير مسؤول) ويتمتع باحترام عام كصاحب ضمير»[15].

وأضاف: «إنه يتمتع بضمير حي للغاية، لكنه لم يتعلم مكافحة الروتين، وهو غير قادر على مكافحته، وهو يتغاضى عنه. علينا أن نخلص أنفسنا من هذا العدو، وبمساعدة جميع العمال والفلاحين الواعين طبقيا سنتمكن من القضاء عليه. وسوف تتبع كل جماهير العمال والفلاحين غير الحزبيين خطى طليعة الحزب الشيوعي في النضال ضد هذا العدو وهذا العجز وهذه النزعة الأوبلوموفية. يجب ألا يكون هناك أي تردد على الإطلاق في هذا الشأن»[16].

في هذه المعركة ضد البيروقراطية، عاد لينين إلى نفس الموضوع الذي بدأ به معركته ضد الروتين المحافظ للمناشفة قبل 20 عاما. وقال إن ما كان مطلوبا بين موظفي الدولة الشيوعيين هو التفكير المرن والديناميكي لدفع الدولة السوفيتية إلى الأمام بأفكار جديدة، بدلا من السماح لها بالركود

وقال: «أستطيع أن أفهم أن الشيوعيين يحتاجون إلى وقت لتعلم التجارة، وأعلم أن أولئك الذين يتعلمون سوف يرتكبون أبشع الأخطاء لعدة سنوات؛ لكن التاريخ سوف

يغفـر لهـم لأنهـم مبتدئـون تمامـا في هـذا المجـال. ولهـذا يجـب علينـا أن نجعـل تفكيرنـا أكثر مرونـة، ويجـب علينـا أن نتخلـص تمامـا مـن كل الأوبلوموفيـة الشـيوعية، أو بالأحـرى الروسـية»[17].

## الدروس المستفادة اليوم

الأوبلوموفيـة، بطبيعـة الحـال، ليسـت مرضـا روسـيا خاصـا، وهـذا مـا يجعـل روايـة غونشـاروف روايـة كلاسـيكية في جميـع اللغـات.

نجـد الأوبلوموفيـين في جميـع مناحـي الحيـاة اليـوم، بمـا في ذلـك داخـل الحركـة الثوريـة. يجـب أن نكـون حازمـين مثـل لينـين في النضـال مـن أجـل تخليـص الحـزب الثـوري مـن روتـين الحلقـات الصغـرى المحافـظ والضيـق، ومـن التراخـي. إن الـتردد واللامبـالاة والخمـول هـي سـمات غـير مقبولـة لـدى الشـيوعيين الثوريـين.

يجب أن ننتبه إلى اقتراح لينين التالي:

«أود أن آخـذ بعضـا مـن رفاقنـا في الحـزب -الكثـير منهـم- وأحبسـهم في غرفـة وأجعلهـم يقـرأون "**أوبلومـوف**" مـرارا وتكـرارا حتـى ينحنـوا عـلى ركبهـم ويقولـوا: "لم يعـد في إمكاننـا أن نتحمـل ذلـك أكـثر". ثـم يجـب إخضاعهـم للاختبـار التـالي: "هـل فهمتـم جوهـر الأوبلوموفيـة؟ هـل أدركتـم أنـه موجـود فيكـم أنتـم أيضـا؟ هـل قررتـم أخـيرا التخلـص مـن هـذا المـرض؟"»[18].

لكـن نصيحـة لينـين ليسـت هـي السـبب الوحيـد لقـراءة أوبلومـوف. فالروايـة غنيـة جـدا بالفكاهـة والفلسـفة والعاطفـة. يرسـم لينـين صـورة كاريكاتوريـة لأوبلومـوف لتوضيـح نقطـة سياسـية، مسـتخدما مرجعـا ثقافيـا كان معظـم الـروس يفهمونـه في ذلـك الوقـت. لكـن هـذا التصويـر الأحـادي الجانـب للشـخصية بالـكاد يخـدش سـطح كل مـا تقدمـه تلـك الروايـة.

لذلـك لا تماطلـوا وكونـوا حاسـمين: اقـرأوا أوبلومـوف اليـوم!

## مراجع وهوامش:


1 : V I Lenin, "A letter to A. A. Bogdanov and S I Gusev", Lenin Collected Works, Vol. 8, Progress Publishers, 1977, pg 143
2 : I Goncharov, Oblomov, Penguin Books, 2005, pg 113
3 : ibid. pg 113
4 : ibid. pg 124
5 : ibid.
6 : ibid. pg 68
7 : ibid. pg 63
8 : ibid. pg 362
9 : ibid.
10 : K Marx, F Engels, The German Ideology, Progress Publishers, 1976, pg 67
11 : V I Lenin, "One Step Forward, Two Steps Back", Lenin Collected Works, Vol. 7, Progress Publishers, 1961, pg 393
12 : V I Lenin, "Letter to S I Gusev", Lenin Collected Works, Vol. 34, Progress Publishers, 1974, pg 296-297
13 : I Goncharov, Oblomov, Penguin Books, 2005, pg 187
14 : V I Lenin, "The International and Domestic Situation of the Soviet Republic", Lenin Collected Works, Vol. 33, Progress Publishers, 1966, pg 223
15 : ibid. pg 225
16 : ibid.
17 : ibid. pg 214
18 : N Valentinov, Encounters with Lenin, Oxford University Press, 1968, pg 50-51

فلادمير لينين في سمولني،
رسم إسحق برودسكي، 1930

# نضال تروتسكي من أجل تجديد شباب الحزب البلشفي

**بعد أن أصيب لينين بالعجز بسبب سكتة دماغية، في مارس 1923، أخذ تروتسكي مشعل النضال من أجل تجديد شباب الحزب البلشفي. في هذا المقال يشرح نيكلاس ألبين سفينسون كيف خرج الصراع بين المعارضة اليسارية المستقبلية ضد "الترويكا" (المكونة من ستالين وزينوفييف وكامينيف) لأول مرة إلى العلن، ويستخلص الدروس القيمة التي يتضمنها للشيوعيين اليوم**

شهد عام 1923 تحول الوضع السياسي في الاتحاد السوفياتي نحو الأسوء. لم يعد لينين قادرا على القيام بأي نشاط سياسي. صحيح أن السياسة الاقتصادية الجديدة كانت قد قدمت فترة استراحة مؤقتة من الدمار الاقتصادي الذي خلفته الحرب الأهلية، لكنها أثارت اضطرابات في المصانع، وانتشر عدد من الإضرابات في جميع أنحاء البلاد. وبدأ الخلاف يتطور بين العمال وبين الحزب البلشفي. وتفاقم ذلك بسبب تزايد قوة بيروقراطية الدولة بفعل السياسة الاقتصادية الجديدة.

كان تروتسكي ولينين يدركان جيدا أهمية النضال الذي كان عليهما خوضه لحماية الحزب من الاستسلام لضغوط بيروقراطية الدولة. وقد كانت مقالات ورسائل لينين الأخيرة موجهة على وجه التحديد ضد بيروقراطية الدولة وضد المدافعين عنها داخل الحزب البلشفي. لكن بعد أن أصيب لينين بالعجز، بسبب سكتة دماغية، في مارس 1923، وقعت على عاتق تروتسكي مهمة النضال

من أجل الحفاظ على التقاليد الحقيقية للبلشفية

## الصراع يخرج إلى العلن

انعقد أول مؤتمر للحزب البلشفي دون حضور لينين في أبريل 1923. ومن المؤسف أن لينين لم يتمكن أبدا من إلقاء "القنبلة" التي كان يعدها لذلك المؤتمر، وبالتالي فإن الصراع الحتمي بين المبادئ الحقيقية للينينية وبين البيروقراطية الناشئة داخل الحزب البلشفي بقي تحت السطح.

حدثت الشرارة المهمة في أكتوبر 1923، عندما كتب تروتسكي رسالة إلى اللجنة المركزية يحذر فيها من تبقرط [Bureaucratisation] الحزب، واحتمال حدوث أزمة اقتصادية وسياسية إذا لم يتم التعامل معها بوعي من قبل القيادة، وقال:

«لقد تطور تبقرط جهاز الحزب إلى أبعاد لم يسبق لها مثيل من خلال طريقة اختيار الأمانة العامة. لقد تم إنشاء شريحة واسعة جدا من موظفي الحزب، الذين يدخلون جهاز حكومة الحزب، والذين يتبرأون تماما من رأيهم الحزبي، أو على الأقل من التعبير العلني عنه، كما لو أنهم يفترضون أن التسلسل الهرمي للأمانة العامة هو الجهاز الذي يخلق الرأي الحزبي والقرارات الحزبية. وتحت هذه الشريحة، الممتنعة عن إبداء آرائها، توجد الكتلة العريضة من أعضاء الحزب، التي تصلها كل القرارات على شكل استدعاء أو أمر. ويوجد بين صفوف هذه القاعدة الجماهيرية للحزب قدر غير عادي من السخط...»[1].

هاجم تروتسكي، بكلمات حادة للغاية، عملية اختيار أمناء الحزب المحليين وكيف أن تلك الممارسة تخلق زمرة بيروقراطية في مركز الحزب. وأوضح أن ذلك يؤدي إلى السلبية من جانب القاعدة الواسعة لأعضاء الحزب والطبقة العاملة ككل، الذين لا تتاح لهم فرصة المشاركة في مناقشات الحزب وقراراته، بل يتلقون الصيغ الجاهزة كأوامر. وصارت مشاركتهم "شكلية أكثر فأكثر"[2].

أعقب هذه الرسالة "إعلان الـ46"، وهي رسالة موجهة إلى اللجنة المركزية من قبل مجموعة من البلاشفة البارزين، يطالبون فيها، من بين أمور أخرى، بإنهاء تعيينات الأمناء العامين من فوق.

استهدفت كلتا الرسالتين تعيينات الأمناء العامين، حيث كان لهذا دور سلبي بشكل خاص في ذلك الوقت. ومن خلال تعيين أمناء من فوق، تم خلق شريحة من الإداريين على جميع المستويات والذين لم يكونوا مسؤولين أمام الأعضاء بل أمام الجهاز. في الماضي، عندما كان الجهاز ما يزال سليما نسبيا، لم يكن لذلك الاختيار نفس التأثير على الإطلاق، وكان، كما أشار تروتسكي، محدودا في نطاقه. لكن الاختيار لاحقا صار يتم على أساس الولاء للجهاز، مما أدى إلى تسريع عملية تبقرط الحزب. وقد وصف تروتسكي ذلك لاحقا بأنها "مجموعة غير قانونية جيدة التنظيم داخل الحزب"، حيث كان يتم «اختيار مسؤولي الحزب والدولة بشكل منهجي وفقا لمعيار واحد: معاداة تروتسكي»[3].

أثارت رسائل أكتوبر أزمة تفاقمت بسبب فشل الشيوعيين الألمان في الاستيلاء على السلطة، مما أنهى الأمل في إمكانية مجيء الفرج من الغرب. أعدت الترويكا اجتماعا مفصلا على المقاس للجنة المركزية ولجنة المراقبة المركزية في نهاية أكتوبر، وهو الاجتماع الذي لم يتمكن تروتسكي من المشاركة فيه بسبب المرض الذي أدى إلى تقييد نشاطه السياسي بشدة خلال الأشهر الثلاثة الأخيرة من عام 1923.

كان القرار ("حول الوضع داخل الحزب") الذي تم تمريره في الاجتماع متوافقا مع الخط السياسي الذي وضعه لينين وتروتسكي، ولكن فقط لكي يتم الانتقال إلى إدانة تروتسكي ومجموعة الـ 46 بسبب "سياسة الانقسام الفصائلي". كانت الترويكا ما تزال تشعر بعدم الأمان في موقفها، لأسباب ليس أقلها عدم اليقين بخصوص صحة لينين، وشعرت بأنها مضطرة إلى تقديم تنازلات.

وانطلاقا من روح الديمقراطية الحزبية، التي زعمت الأغلبية في قيادة الحزب أنها تلتزم بها، قامت المعارضة بنقل النقاش إلى العلن في صحيفة برافدا. في البداية اقتصر النقاش على المسائل الاقتصادية، لكنه انتقل إلى المسائل الحزبية الداخلية. وفي نهاية نوفمبر، أطلق بريوبرازينسكي (أحد أعضاء مجموعة الـ 46 الذين وقفوا وراء رسالة أكتوبر) هجوما واسع النطاق ضد الحزب لأنه اتبع خطا غير صحيح بشأن نظام الحزب الداخلي. مما أدى إلى إشعال الصراع من جديد داخل الحزب.

شعرت الترويكا مرة أخرى بأنها ملزمة بمحاولة التوصل إلى اتفاق مع تروتسكي. أدى ذلك إلى صدور قرار الخامس من دجنبر، والذي تمت الموافقة عليه في جلسة مشتركة بين المكتب السياسي وهيئة رئاسة لجنة المراقبة المركزية.

من الناحية سياسيا، كان قرار الخامس من دجنبر يردد موقف تروتسكي، في شرحه وتحليله للمشكلة والاتجاه العام الذي يحتاج الحزب أن يسير فيه. ومع ذلك، فقد أغفل الالتزام بشكل صريح بإلغاء نظام التعيين المركزي لأمناء الحزب و أيد القرار الذي اتخذته اللجنة المركزية في أكتوبر، والذي أدان "النزعة الانقسامية" لتروتسكي[4]، كما أيد «المسار الذي حدده المكتب السياسي للديمقراطية الداخلية للحزب»[5]. لم تكن تلك تنازلات حاسمة من جانب تروتسكي، لكنها

كانت بلا شك الصيغ التي كانت الترويكا تبحث عنها بالضبط من أجل حماية نفسها من النقد وتعزيز سلطتها

يتهم إ. هـ. كار، وغيره من المؤرخين غير الماركسيين، تروتسكي بأنه "ساذج"، لكن هذا بعيد كل البعد عن الحقيقة. لقد كان تروتسكي يعرف، أفضل من أي شخص آخر، طبيعة الوحش الذي كان يتعامل معه، وتقديره الصحيح للمسألة هو بالضبط ما أجبره على المضي قدما بحذر

## الأساس المادي للبيروقراطية

على الرغم من القيود المفروضة عليه، شرع تروتسكي في محاولة استخدام القرار إلى أقصى حد. وفي سلسلة من الخطب والمقالات في دجنبر 1923 (نُشرت لاحقا تحت عنوان "المسار الجديد") أوضح موقفه بشأن كيف ينبغي للحزب البلشفي أن يسير في "المسار الجديد" الذي وضع نفسه عليه.

أوضح تروتسكي أن البيروقراطية لم ترتكز على هذا الخطأ أو ذاك من جانب القيادة البلشفية. ومثله مثل لينين، أكد دائما أن البيروقراطية نشأت من الظروف المادية، وخاصة تخلف روسيا.

كان ضعف الطبقة العاملة في روسيا هو المصدر الحقيقي للمشكلة. فبعد أن أهلكتها الحرب العالمية والحرب الأهلية، أصبحت الآن مطالبة بإدارة شؤون الدولة. أدى ذلك إلى امتصاص أفضل العمال وكوادر الحزب في الدولة والأجهزة الاقتصادية. وقد كان ذلك طبيعيا لأن الحزب والطبقة العاملة كانا بحاجة إلى ممارسة السيطرة على الدولة:

«ما يزال يتعين علينا أن نتطلع إلى فترة طويلة جدا، سيشغل خلالها أعضاء الحزب الأكثر خبرة والأكثر نشاطا (بمن في ذلك، بطبيعة الحال، أولئك الذين هم من أصل بروليتاري) مناصب مختلفة في الدولة، والنقابات، والتعاونيات، والأجهزة الحزبية. وهذه الحقيقة في حد ذاتها تنطوي على خطر، لأنها أحد مصادر البيروقراطية»[6].

إن حقيقة أن الشيوعيين كانوا قد خاضوا الثورة وكان لهم تاريخ طويل في النضال داخل الحركة العمالية، لم تكن ضمانة ضد البيروقراطية. لقد رفض تروتسكي تلك الفكرة ووصفها بأنها "صنمية مبتذلة"[7]. وأوضح كذلك:

«إن الممارسة البيروقراطية اليومية للدولة السوفياتية برمتها تتسلل إلى جهاز الحزب وتُدخل البيروقراطية إليه. الحزب، كمجموعة، لا يشعر بقيادته، لأنه لا يدركها»[8].

في الأساس، كانت البيروقراطية تزحف على الحزب بشكل مستتر، ولهذا السبب لم يتمكن العديد من البلاشفة من رؤيتها في ذلك الوقت. في النهاية، لم يكن من الممكن حل تلك المشكلة إلا من خلال نجاح مسار الثورة في أوروبا والتطور الاقتصادي، «لكنه سيكون من الخطأ الرفض القدري لكل مسؤولية عن تلك العوامل الموضوعية»[9]. لقد كان من الضروري فضح تلك السيرورة حتى يتمكن الحزب من محاربتها بوعي. كان هذا هو جوهر "المسار الجديد" الذي اقترحه تروتسكي.

## الشباب

تحليل تروتسكي للوضع داخل حزب البلشفي في ذلك الوقت له تطبيق أوسع بكثير. فمقالاته تشرح العلاقة بين القيادة والقواعد، بين المركزية والديمقراطية، وبين التقاليد والمبادرة. كما يوضح حاجة الحزب إلى إعادة توجيه نفسه، وتغيير طريقة عمله. وهذه هي المسائل التي سيكون لها صدى لدى الشيوعيين اليوم والأسئلة التي يواجهونها في بناء الحزب.

لقد أدرك كل من لينين وتروتسكي أن الشباب هم المفتاح لمستقبل الاتحاد السوفياتي. ومثلما تجد جميع المنظمات الثورية قواها وطاقتها في الشباب، فإنه يجب على البلاشفة الموجودين في السلطة أن يجدوا قواهم طاقتهم في الشباب. وكان هذا السبب بالذات هو الذي جعل المعارضة تجد قاعدتها الأقوى بين الشباب.

كانت إحدى المسائل الرئيسية التي أكد عليها تروتسكي هي الحاجة إلى تشبيب الحزب من خلال فتح المجال لجيل جديد من أعضاء الحزب للانخراط في المسؤوليات داخل الحزب. وهذا يعني بطبيعة الحال تكريس الوقت والجهد لدمج الشباب ورفع مستواهم:

«لن يتمكن الحرس القديم من الحفاظ على نفسه كعامل ثوري إلا من خلال التعاون النشط المستمر مع الجيل الجديد، في إطار الديمقراطية. وإلا فإنه، بطبيعة الحال، قد يتحجر ويصبح عن غير قصد التعبير الأكثر اكتمالا عن البيروقراطية»[10].

لقد رسم هنا خيارا واضحا للجيل الأكبر سنا في الحزب. فإما أن يتعاونوا مع الجيل الجديد ويدمجوه، مما يتيح له المساحة للنمو. أو أنهم سيصبحون جزءا من المشكلة

> **كان ضعف الطبقة العاملة في روسيا هو المصدر الحقيقي للمشكلة. فبعد أن أهلكتها الحرب العالمية والحرب الأهلية، أصبحت الآن مطالبة بإدارة شؤون الدولة.**

لقد اهتم تروتسكي بشكل خاص بكيفية تناوله لهذه المسألة، لأنه رأى كيف أن التكوين والتدريب أصبحا بالفعل شكليين وجافين، وبعيدين عن الحياة الواقعية. وهاجم "الطريقة التربوية الأستاذية البحتة"[11] لرفع المستوى الأيديولوجي. وقال إنه بدلا من ذلك على كل جيل أن يتملك النظرية بنفسه

«ولهذا السبب فإن الوسائل التي يتم من خلالها نقل التقليد القتالي للجيش، أو التقليد الثوري للحزب، إلى الشباب لها أهمية كبيرة. فبدون توريث مستمر، وبالتالي بدون تقليد، لا يمكن أن يكون هناك تقدم مستقر. لكن التقليد ليس قانونا صارما أو كتاب وصفات رسمي؛ ولا يمكن حفظه عن ظهر قلب أو قبوله باعتباره إنجيلا؛ ليس كل ما يقوله الجيل القديم يمكن تصديقه بمجرد "كلمة الشرف". بل على العكس من ذلك، يجب تملك التقليد، إذا جاز التعبير، عن طريق المخاض الداخلي؛ يجب أن يتم التوصل إليه بمجهود ذاتي وبطريقة نقدية، وبهذه الطريقة يتم استيعابه. وإلا فسيتم بناء الهيكل بأكمله على الرمال»[12].

لم تكن مقاومة الفئة الأكبر سنا من أعضاء الحزب ظاهرة جديدة، بل كانت نزعة كان على لينين أن يحاربها مرارا وتكرارا، وكثيرا ما كان زينوفييف وكامينيف وستالين يظهرون على رأس تلك النزعة. كان لينين يسميهم "البلاشفة القدامى" أو "أعضاء اللجنة". وقد لعب هؤلاء الأشخاص دورا محافظا في كل منعطف حاسم من منعطفات الثورة الروسية

## نظرية كفاحية حتى النخاع

«تتمثل اللينينية في التحرر بشجاعة من النزعة المحافظة المتشبثة بالماضي، ومن التقيد بالسوابق والمرجعيات والاقتباسات الشكلية البحتة»[13].

كان الحرس القديم، في نضاله ضد لينين وتروتسكي، يلجأ باستمرار إلى "تقاليد الحزب البلشفي". وقد هاجم تروتسكي اللجوء إلى التقاليد باعتباره نزعة معادية تماما للثورة. وقارن ذلك بالحزب الاشتراكي الديمقراطي الألماني، الذي أصبح، خلال فترة الهدوء النسبي في الصراع الطبقي، موبوءا بشكل خاص بهذا المرض

«هذا التقليد، الذي هو غريب تماما عنا، يحمل طابعا شبه تلقائي: فكل يوم هو استمرار "بشكل طبيعي" لليوم السابق، تماما كما أنه يحضر "بشكل طبيعي" لليوم الذي يليه. كانت المنظمة تنمو، وصحافة الحزب تتطور، وصندوقه يمتلئ...

في هذه التلقائية تشكل كل الجيل الذي جاء بعد بيبل: جيل من البيروقراطيين، والتافهين، والأغبياء الذين انكشفت شخصيتهم السياسية بالكامل في الساعات الأولى من الحرب الإمبريالية»[14].

عند المنعطفات الحاسمة في التاريخ، تصبح التقاليد التي تمت صياغتها في فترة سابقة عائقا هائلا أمام التطور المستقبلي للحزب. ليس غريبا حقا أنه يتوجب على أولئك الذين يريدون كسر القيود التي يفرضها المجتمع القديم على الاقتصاد، لكن أيضا على عقول وأفكار البشر، أن يناضلوا باستمرار لتحرير أنفسهم من الروتين والنزعة المحافظة

«في كل مرة تتطلب الظروف الموضوعية منعطفا جديدا، وتحولا جريئا، ومبادرة إبداعية، تكشف لقاومة المحافظة عن ميل طبيعي لاستحضار "التقاليد القديمة" وما يسمى بالبلشفية القديمة، والتي ليست في الواقع

شيوعيون متطوعون في الحرب على الجبهة البولندية

إلا القشرة الفارغة لفترة صارت من الماضي»[15].

وصف تروتسكي كيف أنه خلال كل منعطف مرت منه الأممية الشيوعية حتى تلك اللحظة كان يستلزم دائما النضال ضد القوى القديمة، ضد العناصر المحافظة، بغض النظر عما إذا كان ذلك التحول تحولا إلى "اليسار"، إذا جاز التعبير، أو إلى "اليمين"

يشرح تروتسكي كيف أن لينين في معركته ضد النزعة اليسراوية المتطرفة، في عام 1921، «قد أنقذ الأممية من الدمار والتحلل اللذان كانت مهددة بهما لو أنها سلكت طريق "اليسراوية" التلقائية وغير النقدية، والتي أصبحت، في فترة وجيزة من الزمن، بالفعل تقليدا متصلبا»[16].

إلا أن تكتيك الجبهة الموحدة الناجح الذي تم تبنيه بعد صراع عام 1921، أصبح عقبة في عام 1923. وكتب تروتسكي عنه أنه لعب "دورا خطيرا للغاية في أحداث النصف الأخير من عام 1923". وبعبارة أخرى، فقد أدى إلى هزيمة الثورة الألمانية. وكانت هناك حاجة إلى منعطف جديد

«لو أن الحزب الشيوعي غير وتيرة عمله بشكل مفاجئ واستفاد من الأشهر الخمسة أو الستة التي منحها له التاريخ للتحضير السياسي والتنظيمي والتقني المباشر للاستيلاء على السلطة، لكان من الممكن أن تكون نتيجة الأحداث مختلفة تماما عما شهدناه في نوفمبر»[17].

لقد وصف تروتسكي اللينينية بأنها "نظرية كفاحية حتى النخاع"[18]، وهو وصف جيد للغاية. إذ أنه في خضم النضال بالتحديد نختبر أفكارنا، ونحدد ما الذي يصلح وما الذي لا يصلح. نحن نتحقق من خططنا وخبرتنا ونظريتنا على محك الواقع:

«بمجرد انخراطك في النضال، لا تنشغل بشكل مفرط بالخطاطات والسوابق، بل انغمس في الواقع كما هو وابحث هناك عن القوى اللازمة لتحقيق النصر»[19].

## التوازن بين الديمقراطية والمركزية

إن مفتاح تطوير الخط السياسي الصحيح يبدأ من القيادة:

«الضمانة الأساسية، في هذه الحالة، هي القيادة الصحيحة، مع إيلاء الاهتمام المناسب لاحتياجات اللحظة التي تنعكس في الحزب، ومرونة الجهاز التي ينبغي ألا تشل مبادرة الحزب، بل تنظمها، والتي ينبغي ألا تخاف من النقد، ولا أن تخوف الحزب بفزاعة الفصائل»[20].

في ذلك الوقت، كان الحزب البلشفي قد بدأ يتصرف بطريقة معاكسة تماما. كانت الانتقادات توصف بأنها نزعة "فصائلية"، وتم خنق المبادرات، وكل ذلك باسم "الوحدة" والحفاظ على قيادة الحزب. لكن في الواقع، وكما أشار تروتسكي، لم تمنع مثل هذه التدابير تطور الفصائلية، بل على العكس من ذلك جعلتها أكثر حدة. لقد خدمت بشكل خاص الفصيل البيروقراطي، الذي ازدهر في المؤامرات خلف الكواليس بدلا من النقاش المفتوح.

«الديمقراطية والمركزية وجهان لتنظيم الحزب. والمهمة هي التوفيق بينهما على الوجه الأصح، أي على النحو الأمثل الذي يتناسب مع الوضع. خلال الفترة الماضية لم يكن هناك مثل هذا التوازن. مركز الثقل استقر بشكل خاطئ في الجهاز. تم تقليص مبادرة الحزب إلى الحد الأدنى. ومن ثم فإن عادات وإجراءات

القيـادة تتعـارض بشـكل أسـاسي مـع روح المنظمـة البروليتاريـة الثوريـة»[21].

مـا يوضحـه تروتـسكي هـو أن التـوازن بين الديمقراطيـة والمركزيـة في المنظمـة الثوريـة ليـس ثابتـا، بـل يعتمـد على الوضع. إن نتيجـة الإفـراط في المركزيـة هـي حرمـان قواعـد الحـزب مـن المبـادرة والمشـاركة. في ظـل ظـروف الحـرب الأهليـة، كان هـذا بالطبـع شرا لا بـد منـه، ولكـن في ظـل ظـروف عـام 1923، أصبـح ذلـك خـطيرا

لم تكـن المشـكلة مرتبطـة بهـذا "الانحـراف المعزول" أو ذاك، بل بـ"السياسـة العامـة للجهـاز، في ميلـه البيروقراطـي". لم تكـن تلـك مجـرد مسـألة تنظيميـة، بـل كانـت سـتؤدي حـتما إلى التسـبب في انحرافـات سياسـية

«في مسـار تطورهـا الطويـل، يهـدد التبقـرط بفصـل القـادة عـن الـجماهير، وجعلهـم يركـزون اهتمامهـم فقـط على مسـائل الإدارة، والتعيينـات والتنقـيلات، وتضيـق أفقهـم، وتضعـف روحهـم الثوريـة، أي تـؤدي إلى انحطـاط انتهـازي إلى هـذا الحـد أو ذاك للحـرس القديـم، أو على الأقـل لجـزء كـبير منـه»[22].

يسـلط تروتـسكي هنـا الضـوء على وجـه التحديـد على المشـاكل التـي كانـت سـتعاني منهـا الأمميـة الشـيوعية خلال العقـود القادمـة. وعلى الرغـم مـن وجـود فترات مـن الانحـراف نحـو اليسـار المتطـرف، فـإن الانحـراف في الأغلـب كان نحـو اليـمين، وكانـت العواقـب وخيمـة

لم تلـق نصيحـة تروتسـكي آذانـا صاغيـة مـن قبـل الترويـكا وأنصارهـا. وفي مؤتمـر الحـزب في ينايـر 1924، وبينـما كان لينـين عـلى فـراش المـوت، شرعـوا بسرعـة في إغـلاق النقـاش في برافـدا، وقمـع منظمـة الشـباب والمعارضـة.

مـن الناحيـة السياسـية، كانـت

البيروقراطيـة تعنـي إحيـاء النزعـة المنشـفية، عـلى الرغـم مـن أنهـا أصبحـت الآن ترتـدي ملابـس "شـيوعية" جديـدة. لقـد أحيـت نظريـة المراحـل، وبـدلا مـن عـدم ثقـة لينـين في الليبراليـين، دعـت إلى التحالـف مـع "البرجوازيـة التقدميـة". وبطبيعـة الحـال، تـم التخـلي عـن منظـور الثـورة العالميـة لصالـح "الاشـتراكية في بلـد واحـد"، والتـي كانـت نقطـة النهايـة المنطقيـة لهـا هـي سياسـة "التعايـش السـلمي" المعاديـة للثـورة التـي تـم اعتمادهـا في عهـد خروتشـوف. لقـد عكسـت كل تلـك الأفـكار النظـرة الضيقـة للبيروقراطيـة الصاعـدة، التـي رأت في الحـركات الثوريـة والمبـادرة الثوريـة والـروح الثوريـة تهديـدا لهـا.

وضعـت مقـالات المسـار الجديـد الأسـاس النظـري للمعارضـة اليسـارية ونضالهـا ضـد البيروقراطيـة الصاعـدة. لكـن الأفـكار الـواردة في تلـك الكتابـات ليسـت ذات أهميـة تاريخيـة فقـط. إن الـروح والأسـاليب الثوريـة التـي دافـع عنهـا تروتسـكي هـي الأسـاس الـذي سـيتم بنـاء الحـزب الثـوري العالمـي المسـتقبلي عليـه.

## مراجع وهوامش:


1 : L Trotsky, "First Letter to the CC", The Challenge of The Left Opposition (1923-25), Pathfinder Press, 2019, pg 69
2 : ibid. pg 68
3: L Trotsky, My Life, Wellred, 2018, pg 443
4 : R Gregor ed., "On the Intra-Party Situation", Resolutions and Decisions of the Communist Party of the Soviet Union, Vol. 2, University of Toronto Press, 1974, pg 208
5 : E H Carr, The Interregnum 1923-24, The MacMillan Press, 1978, pg 307
6 : L Trotsky, The New Course, University of Michigan Press, 1965, pg 21
7 : ibid.
8 : ibid. pg 26
9 : ibid. pg 22
10 : ibid. pg 92
11 : ibid.
12 : ibid. pg 103
13 : ibid. pg 53
14 : ibid. pg 47
15 : ibid. pg 54
16 : ibid. pg 48
17 : ibid. pg 49
18 : ibid. pg 56
19 : ibid. pg 53
20 : ibid. pg 33
21 : ibid. pg 90
22 : ibid. pg 18

# لينين: مهام جديدة وقوى جديدة

**يوم 22 يناير (09 يناير حسب التقويم القديم) 1905، أطلقت القوات القيصرية النار على حشد من المتظاهرين العزل، مما أسفر عن مقتل المئات. رد العمال في جميع أنحاء روسيا على تلك الجريمة بحركة إضراب ثورية**

**أدرك لينين على الفور معنى الوضع. وفي مقاله "مهام جديدة وقوى جديدة"، المنشور في صحيفة فبريود البلشفية، يوم 08 مارس (23 فبراير وفق التقويم القديم)، حث الاشتراكيين الديمقراطيين الروس على التخلص من كل الروتين والسعي لتوفير القيادة والتعبير المنظم للحركة الثورية للعمال**

**لقد اخترنا إعادة نشر هذا المقال في الذكرى المائوية لوفاة لينين لأنه يقدم لمحة عن حقيقة لينين باعتباره مفكرا وقائدا وثوريا. وعلى الرغم من أنه لا يمكن فصل المقال عن سياقه -والذي هو وضع ثوري بالكامل دخل فيه العمال في مواجهة مباشرة مع الدولة القيصرية- فإنه ما يزال يحتوي دروسا مهمة للثوريين الذين يعيشون اليوم**

إن تطور حركة الطبقة العاملة الجماهيرية في روسيا في العلاقة مع تطور الحركة الاشتراكية الديمقراطية يتميز بثلاثة تحولات ملحوظة: الأول كان هو الانتقال من حلقات الدعاية الضيقة إلى التحريض الاقتصادي الواسع بين الجماهير؛ والثاني هو الانتقال إلى التحريض السياسي على نطاق واسع وانطلاق المظاهرات في الشوارع؛ والثالث هو الانتقال إلى الحرب الأهلية الفعلية، إلى النضال الثوري المباشر، إلى الانتفاضة الشعبية المسلحة. تم التحضير لكل هذه التحولات، من ناحية، من خلال الفكر الاشتراكي الذي كان يعمل بشكل رئيسي في اتجاه واحد، ومن ناحية أخرى، من خلال التغيرات العميقة التي حدثت في ظروف حياة وفي عقلية الطبقة العاملة بأكملها، وكذلك من خلال حقيقة أن شرائح أوسع من الطبقة العاملة قد تم إيقاظها لنضال أكثر وعيا ونشاطا. في بعض الأحيان، كانت تلك التغيرات تحدث بشكل غير محسوس، حيث كانت البروليتاريا تحشد قواها خلف الكواليس بطريقة غير مرئية، لدرجة أن المثقفين كثيرا ما شككوا في فعالية وقوة الحركة الجماهيرية. ستكون هناك نقطة تحول، وستصعد الحركة الثورية بأكملها، فجأة، إلى مرحلة جديدة وأعلى. وستواجه البروليتاريا وطليعتها، الاشتراكية الديموقراطية، مهاما عملية جديدة، والتي من أجل التعامل معها ستنبثق قوى جديدة، على ما يبدو، من تحت الأرض، قوى لم يكن أحد يشك في وجودها قبل وقت قصير من نقطة التحول. لكن كل هذا لم يحدث دفعة واحدة، دون تذبذبات، دون صراع التيارات داخل الحركة الاشتراكية الديمقراطية، دون انتكاسة إلى وجهات نظر بالية ساد الاعتقاد أنها ماتت ودُفنت منذ زمن طويل

ومرة أخرى تمر الاشتراكية الديمقراطية في روسيا بمثل هذه الفترة من التذبذب. لقد مر زمن حيث كان على التحريض السياسي أن يشق طريقه من خلال النظريات الانتهازية، وحين كان هناك خوف من أننا لن نكون على مستوى المهام الجديدة، وحين كان التكرار المفرط لصفة "الطبقة"، أو التفسير الذيلي لموقف الحزب تجاه الطبقة، يستخدم لتبرير تخلف الاشتراكيين الديمقراطيين عن مطالب البروليتاريا. لقد أزاح مسار الحركة جانبا كل هذه المخاوف قصيرة النظر والآراء المتخلفة. ويصاحب الانتفاضة الجديدة الآن مرة أخرى، وإن بشكل مختلف بعض الشيء، النضال ضد الحلقات والاتجاهات التي عفا عليها الزمن. لقد عاد أتباع "رابوتشييه ديلو" إلى الحياة من جديد في صفوف الإيسكريين الجدد. ولكي نكيف تكتيكنا وتنظيمنا مع المهام الجديدة، علينا التغلب على مقاومة النظريات الانتهازية المتمثلة في "نوع أعلى من التظاهر" (خطة حملة الزيمستفو)، أو مقاومة "التنظيم كسيرورة"؛ علينا أن نحارب الخوف الرجعي من "توقيت" الانتفاضة، أو الخوف من دكتاتورية البروليتاريا والفلاحين الديمقراطية الثورية. ومرة أخرى، يتم استخدام التكرار المفرط (والأحمق في كثير من الأحيان) لكلمة "الطبقة" والاستخفاف بمهام الحزب فيما يتعلق بالطبقة، لتبرير حقيقة أن الاشتراكية الديمقراطية متخلفة عن الاحتياجات الملحة للبروليتاريا. إن شعار "النشاط العمالي المستقل" يساء استخدامه مرة أخرى من قبل الأشخاص الذين يعبدون الأشكال الأدنى من النشاط ويتجاهلون الأشكال العليا للنشاط الاشتراكي الديمقراطي المستقل حقا، والمبادرة الثورية الحقيقية للبروليتاريا نفسها

ليس هناك أدنى شك في أن الحركة سوف تكتسح، في مسارها، مرة أخرى بقايا وجهات النظر التي عفا عليها الزمن والتي لا حياة فيها. ومع ذلك، فإن مثل هذا الاكتساح لا ينبغي أن يقتصر على مجرد رفض الأخطاء القديمة، بل الأهم من ذلك بما لا يقاس هو أنه يجب أن يأخذ شكل عمل ثوري بناء نحو إنجاز المهام الجديدة، نحو الاستقطاب إلى حزبنا والاستفادة من القوى الجديدة التي تدخل الآن إلى الساحة الثورية بهذه الجماهير الغفيرة. إن مسائل العمل الثوري البناء هذه هي التي ينبغي أن تكون الموضوع الرئيسي في مداولات المؤتمر الثالث القادم؛ وعلى جميع أعضاء حزبنا أن يركزوا على هذه المسائل في عملهم المحلي والعام. أما المهام الجديدة التي تواجهنا فقد تحدثنا عنها بعبارات عامة في أكثر من مناسبة. وهي: توسيع نطاق تحريضنا ليشمل شرائح جديدة من فقراء المدن والقرى؛ وبناء منظمة أوسع وأقوى وأكثر مرونة؛ والتحضير للانتفاضة وتسليح الشعب. وتحقيقا لهذه الغايات، عقد اتفاقيات مع الديمقراطيين الثوريين. إن ظهور قوى جديدة لإنجاز هذه المهام تؤكده ببلاغة التقارير عن الإضرابات العامة في جميع أنحاء روسيا، والتقارير عن الإضرابات والمزاج الثوري بين الشباب، وبين المثقفين الديمقراطيين عموما، وحتى بين قطاعات كثيرة من البرجوازية. إن وجود هذه القوى الجديدة الهائلة والتأكيد الإيجابي بأن جزءا صغيرا فقط من المخزون الهائل من المواد القابلة للاشتعال لدى الطبقة العاملة والفلاحين قد تأثر حتى الآن بالغليان الثوري الحالي غير المسبوق في روسيا، هو دليل موثوق بأنه يمكن إنجاز المهام الجديدة دون كلل، وسيتم إنجازها. إن السؤال العملي الذي يواجهنا الآن هو: أولا، كيفية الاستفادة من هذه القوى الجديدة وتوجيهها وتوحيدها وتنظيمها؛ كيف نركز العمل الاشتراكي الديمقراطي على المهام الجديدة الأعلى أهمية اليوم دون أن ننسى ولو للحظة واحدة سلسلة المهام القديمة والعادية التي تواجهنا، وسوف تستمر في مواجهتنا، ما دام عالم الاستغلال الرأسمالي موجودا

وللإشارة إلى الطرق المتعددة للتعامل مع هذه المسألة العملية، سنبدأ بمثال فردي، لكنه مميز جدا من وجهة نظرنا. فمنذ وقت قصير، عشية اندلاع الثورة، تطرقت صحيفة أوسفوبوجديني (العدد 63) البرجوازية الليبرالية إلى مسألة العمل التنظيمي للاشتراكيين الديمقراطيين. ولم تضيع أوسفوبوجديني، وهي تتابع عن كثب الصراع بين الاتجاهين داخل الاشتراكية الديمقراطية، أية فرصة للاستفادة من عودة الإيسكرا الجديدة إلى الحركة الاقتصادوية، من أجل التأكيد (فيما يتعلق بالكتيب الديماغوجي الذي كتبه "عامل") على تعاطفها العميق مع مبادئ الاقتصادوية. لقد أشارت هذه المطبوعة الليبرالية بحق إلى أن الكراس (انظر فبريود، العدد 2، حول هذا الموضوع) ينطوي على الرفض الحتمي لدور الاشتراكية-الديموقراطية الثورية أو التقليل من شأنه. وفي إشارة إلى تأكيدات "العامل" غير الصحيحة تماما بأنه منذ انتصار الماركسيين الأرثوذكس تم تجاهل النضال الاقتصادي، تقول أوسفوبوجديني

«إن وهم الاشتراكية الديمقراطية الروسية الحالية يكمن في خوفها من العمل التعليمي، ومن الطرق القانونية، ومن الاقتصادوية، وما يسمى بالأشكال غير السياسية للحركة العمالية، وفي فشلها في فهم أن العمل التعليمي، والأشكال القانونية وغير السياسية، هي التي يمكنها أن تخلق أساسا قويا وواسعا بما فيه الكفاية لحركة الطبقة العاملة التي

الإضراب العام في بوري، فينلاندا. اكتوبر 1905

تستحق حقا أن يطلق عليها اسم حركة ثورية». وتحث "أوسفوبوجديني" أتباعها على "أن يأخذوا على عاتقهم زمام المبادرة في بناء حركة نقابية"، ليس في تعارض مع الاشتراكية الديمقراطية، بل جنبا إلى جنب معها؛ وتقارن بين هذا الوضع والوضع الذي ساد داخل الحركة العمالية الألمانية أثناء تطبيق القانون الاستثنائي ضد الاشتراكيين

ليس هذا هو المكان المناسب للتعامل مع هذا التشبيه، الذي هو تشبيه خاطئ تماما. في المقام الأول، من الضروري إعادة التأكيد على حقيقة موقف الاشتراكيين الديموقراطيين من الأشكال القانونية لحركة الطبقة العاملة. كتبنا عام 1902 في كتاب "ما العمل؟": «لقد بدأ إضفاء الشرعية على النقابات العمالية غير الاشتراكية وغير السياسية في وسيا. ومن الآن فصاعدا، لا يسعنا إلا أن نأخذ في الاعتبار هذا الاتجاه». كيف يجب أن نتعامل معها؟ لقد طرحنا هذا السؤال هناك وأجبنا عنه بالإشارة إلى ضرورة فضح، ليس فقط نظريات زوباتوف، بل أيضا كل خطابات الانسجام الليبرالية حول "التعاون الطبقي". (بدعوتها الاشتراكيين الديمقراطيين إلى التعاون، تعترف أوسفوبوجديني تماما بالمهمة الأولى، لكنها تتجاهل المهمة الثانية). ويمضي الكتيب في القول: «إن القيام بهذا لا يعني على الإطلاق نسيان حقيقة أن القانون عن الحركة العمالية سيكون على المدى الطويل في صالحنا، وليس في صالح الزوباتوفيين». ومن خلال فضحنا الزوباتوفية والليبرالية في الاجتماعات الشرعية، نعمل على فصل الزوان عن القمح. «ونعني بالقمح جذب انتباه أعداد أكبر من أي وقت مضى، بما في ذلك الفئات الأكثر تخلفا، من العمال إلى المسائل الاجتماعية والسياسية، وتحرير أنفسنا، نحن الثوريين، من المهام التي هي في الأساس شرعية (توزيع الكتب الشرعية، والتعاونيات، وما إلى ذلك)، والتي سيوفر لنا تطويرها حتما كمية متزايدة من المواد للتحريض»

ويترتب عن ذلك بوضوح أنه إذا كان هناك من يعاني من "**الوهم**" فيما يتعلق بمسألة "**الخوف**" من الأشكال القانونية للحركة، فهو "أوسفوبوجديني". وبدلا من الخوف من تلك الأشكال، يشير الاشتراكيون-الديموقراطيون الثوريون بوضوح إلى وجود **الزوان** وكذلك **القمح** داخلها. وبالتالي، فإن حجج أوسفوبوجديني لا تغطي سوى **خوف** الليبراليين الحقيقي (والمبرر) من أن تقوم الاشتراكية الديمقراطية الثورية بفضح **الجوهر الطبقي لليبرالية**.

لكن ما يهمنا أكثر، من وجهة نظر مهام اليوم، هو مسألة إعفاء الثوريين من بعض مهامهم. إن حقيقة أننا نشهد الآن بداية الثورة تجعل هذه المسألة مسألة عملية بشكل خاص، وذات أهمية واسعة النطاق. وقد قلنا في كتاب "ما العمل؟": «كلما واصلنا نضالنا الثوري بقوة أكبر، كلما اضطرت الحكومة إلى إضفاء الشرعية على جزء من العمل النقابي، وبالتالي تخليصنا من جزء من أعبائنا». لكن النضال الثوري النشط يخفف عنا "جزءا من أعبائنا" بعدة طرق أخرى إلى جانب ذلك. لقد أدى الوضع الحالي إلى أكثر من مجرد "إضفاء الشرعية" على الكثير مما كان محظورا في السابق. لقد وسعت الحركة إلى حد أن العديد من الأشياء التي كانت في متناول الثوريين وحدهم، قد دخلت الآن مجال الممارسة، وأصبحت مألوفة لدى الجماهير وفي متناولها. إن مجمل مسار التطور التاريخي للاشتراكية الديمقراطية يتميز

بحقيقة أنها اكتسبت لنفسها، وفي مواجهة كل العقبات، حرية عمل متزايدة، على الرغم من القوانين القيصرية وإجراءات الشرطة. إن البروليتاريا الثورية تحيط نفسها، كما في السابق، بجو معين، لا يمكن تصوره بالنسبة للحكومة، من التعاطف والدعم سواء داخل الطبقة العاملة أو بين الطبقات الأخرى (التي لا تتفق، بالطبع، إلا مع جزء صغير من مطالب ديمقراطيي الطبقة العاملة). في المراحل الأولى للحركة، كان على الاشتراكي الديمقراطي أن يقوم بقدر كبير من العمل الذي يرقى إلى مستوى العمل الثقافي تقريبا، أو أن يركز بشكل شبه حصري على التحريض الاقتصادي. أما الآن فإن هذه الوظائف قد بدأت تنتقل، الواحدة تلو الأخرى، إلى أيدي قوى جديدة، من قطاعات أوسع يتم تجنيدها في الحركة. لقد بدأت المنظمات الثورية تركز أكثر فأكثر على القيام بوظيفة القيادة السياسية الحقيقية، ومهمة استخلاص دروس اشتراكية ديمقراطية من احتجاجات العمال والسخط الشعبي. في البداية كان علينا أن نعلم العمال الأبجدية، بالمعنى الحرفي والمجازي للكلمة. أما الآن فقد ارتفع مستوى الأدبيات السياسية بشكل هائل بحيث أصبح بوسعنا، بل وينبغي لنا، أن نركز كل جهودنا على الأهداف الاشتراكية الديمقراطية الأكثر مباشرة والتي تهدف إلى إعطاء اتجاه منظم للتيار الثوري. والآن يقوم الليبراليون والصحافة الشرعية بقدر كبير من العمل "التحضيري" الذي كان علينا حتى الآن أن نبذل فيه الكثير من الجهد. والآن لم تعد الدعاية العلنية للأفكار والمطالب الديمقراطية مضطهَدة من قبل الحكومة الضعيفة؛ وقد انتشرت على نطاق واسع لدرجة أنه يجب علينا أن نتعلم كيف نكيف أنفسنا مع هذا النطاق الجديد تماما للحركة. يوجد في هذا العمل التحضيري، بطبيعة الحال، الزوان والقمح. وبطبيعة الحال، سيتعين على الاشتراكيين الديمقراطيين الآن أن يولوا اهتماما أكبر لمكافحة تأثير الديمقراطيين البرجوازيين على العمال. لكن هذا العمل بالذات سيكون له محتوى اشتراكي-ديمقراطي أكثر واقعية بكثير من نشاطنا السابق، الذي كان يهدف بشكل رئيسي إلى إيقاظ الجماهير اللاواعية سياسيا

وكلما اتسع انتشار الحركة الشعبية، كلما انكشفت الطبيعة الحقيقية لمختلف الطبقات بشكل أكثر وضوحا، وأصبحت مهمة الحزب أكثر إلحاحا في قيادة الطبقة العاملة، وفي أن يصبح منظمها، بدلا من الانجرار في ذيل الأحداث. وكلما تطور النشاط الثوري المستقل بجميع أنواعه في كل مكان، كلما أصبح خواء وتفاهة شعارات "رابوتشييه ديلو"، التي استقبلها الإيسكريون الجدد بشغف، فيما يتعلق بالنشاط المستقل بشكل عام، أكثر وضوحا. وكلما أصبح معنى النشاط الاشتراكي الديمقراطي المستقل أكثر أهمية، كلما تعاظمت المطالب التي تفرضها الأحداث على مبادرتنا الثورية. وكلما اتسعت التيارات الجديدة للحركة الاجتماعية، كلما تعاظمت أهمية وجود منظمة اشتراكية ديمقراطية قوية قادرة على خلق قنوات جديدة لهذه التيارات. وكلما عملت الدعاية والتحريض الديمقراطيان -اللذان يتمان بشكل مستقل عنا- لصالحنا، كلما تعاظمت أهمية وجود قيادة اشتراكية ديمقراطية منظمة لحماية استقلال الطبقة العاملة عن الديمقراطيين البرجوازيين

إن الفترة الثورية تمثل بالنسبة للاشتراكيين الديموقراطيين ما تمثله فترة الحرب بالنسبة للجيش. يجب علينا توسيع كوادر جيشنا، ويجب علينا الارتقاء بهم من قوة السلام إلى قوة الحرب، ويجب علينا تعبئة جنود الاحتياط، واستدعاء الذين هم في إجازة، وتشكيل فيالق ووحدات وخدمات جديدة. يجب ألا ننسى أنه في الحرب يتعين علينا بالضرورة وحتما أن نتحمل جنودا بدلاء أقل تدريبا، وفي كثير من الأحيان استبدال الضباط بجنود عاديين، وتسريع وتبسيط ترقية الجنود إلى رتبة ضباط

ولكي نتخلى عن الاستعارة، نقول إنه علينا أن نزيد بشكل كبير عدد أعضاء الحزب والمنظمات المرتبطة به، لكي نكون قادرين، إلى حد ما، على مواكبة تيار الطاقة الثورية الشعبية التي تعززت مائة ضعف. وغني عن القول إن هذا لا يعني إهمال التدريب المستمر والتعليم المنهجي على أساس الحقائق الماركسية. ومع ذلك، يجب أن نتذكر أنه في الوقت الحاضر، تعلق أهمية أكبر بكثير في مسألة التدريب والتعليم على العمليات العسكرية، التي تعلم غير المدربين بدقة وبشكل كامل على أساس أفكارنا. يجب أن نتذكر أن

إخلاصنا "العقائدي" للماركسية يتعزز الآن بمسيرة الأحداث الثورية، التي تقدم في كل مكان دروسا موضوعية للجماهير وأن كل هذه الدروس تؤكد بدقة عقيدتنا. ومن ثم، فإننا لا نتحدث عن التخلي عن العقيدة، أو التخفيف من موقفنا المشكك والمرتاب تجاه المثقفين المرتبكين والثوريين ذوي العقول القاحلة. بل على العكس تماما. إننا نتحدث عن أساليب جديدة لتدريس العقيدة، وهو الشيء الذي من غير المسموح للاشتراكي الديمقراطي أن ينساه. إننا نتحدث عن الأهمية التي يكتسيها، في يومنا هذا، استخدام الدروس الموضوعية للأحداث الثورية الكبرى لكي ننقل -ليس إلى حلقات الدراسة، كما كان الحال في الماضي، بل إلى الجماهير- دروسنا "العقائدية" القديمة التي، على سبيل المثال، من الضروري عمليا أن تجمع بين الإرهاب وبين انتفاضة الجماهير، أو أنه يجب أن يكون المرء قادرا على تمييز المصالح الطبقية لبرجوازياتنا وراء ليبرالية المجتمع الروسي المتعلم (راجع جدالاتنا مع الاشتراكيين الثوريين حول هذا الموضوع في فبريود، العدد: 3)

وبالتالي، فإن الأمر لا يتعلق بتخفيف مطالبنا الاشتراكية الديمقراطية وعنادنا الأرثوذكسي، بل يتعلق بتعزيز كليهما بطرق جديدة، من خلال أساليب جديدة للتدريب. في زمن الحرب، يجب أن يحصل المجندون على دروسهم التدريبية من خلال العمليات العسكرية مباشرة. لذا تعاملوا مع أساليب التدريب الجديدة بجرأة أكبر أيها الرفاق! إلى الأمام، ونظموا المزيد والمزيد من الفرق، وارسلوها إلى المعركة، وجندوا المزيد من العمال الشباب، ووسعوا الإطار الطبيعي لجميع منظمات الحزب، من اللجان إلى مجموعات المصانع، والنقابات الحرفية، والدوائر الطلابية! وتذكروا أن كل لحظة تأخير في هذه المهمة ستكون في صالح أعداء الاشتراكية الديمقراطية؛ لأن التيارات الجديدة تبحث عن منفذ فوري، وإذا لم تجد قناة اشتراكية ديمقراطية فسوف تندفع إلى قناة غير اشتراكية ديمقراطية. تذكروا أن كل خطوة عملية في الحركة الثورية ستعطي للمجندين الشباب حتما درسا في العلوم الاشتراكية الديمقراطية؛ لأن هذا العلم يقوم على تقدير صحيح موضوعيا لقوى واتجاهات مختلف الطبقات، في حين أن الثورة نفسها ليست سوى تحطيم للبنى الفوقية القديمة والعمل المستقل لمختلف الطبقات، التي تسعى كل منها إلى إقامة البناء الفوقي الجديد بطريقتها الخاصة. لكن لا تحطوا من شأن علمنا الثوري إلى مستوى مجرد كتاب عقائد، ولا تبتذلوه بعبارات بائسة حول التكتيك كسيرورة والتنظيم كسيرورة، بعبارات تسعى إلى تبرير الارتباك والتردد والافتقار إلى المبادرة. افسحوا مجالا أوسع لجميع أنواع المشاريع المتنوعة من جانب المجموعات والحلقات الأكثر تنوعا، مع الأخذ في الاعتبار أنه، بصرف النظر عن نصائحنا وبغض النظر عنها، فإن مقتضيات مسيرة الأحداث الثورية التي لا هوادة فيها ستبقيهم على الطريق الصحيح. هناك مقولة قديمة مفادها أنه في السياسة غالبا ما يتعين على المرء أن يتعلم من العدو. وفي اللحظات الثورية،

> **"إن الفترة الثورية تمثل بالنسبة للاشتراكيين الديموقراطيين ما تمثله فترة الحرب بالنسبة للجيش"**

يفرض علينا العدو دائما الاستنتاجات الصحيحة بطريقة مفيدة وسريعة بشكل خاص

خلاصة القول، يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار الحركة المتنامية، التي زادت مائة ضعف، مع الإيقاع الجديد للعمل، ومع الجو الأكثر حرية ومع اتساع مجال النشاط. يجب أن نعطي العمل نطاقا مختلفا تماما. وينبغي أن تركز أساليب التدريب من التعليم السلمي إلى العمليات العسكرية. ويجب كسب المناضلين الشباب بشكل أكثر جرأة وعلى نطاق واسع وبسرعة إلى صفوف جميع أنواع منظماتنا. وينبغي إنشاء مئات المنظمات الجديدة لهذا الغرض دون تأخير ولو للحظة واحدة. أجل مئات؛ وهذا ليس مبالغة، ولا ينبغي لأحد أن يقول لي إنه "قد فات الأوان" الآن للتعامل مع مثل هذه المهمة التنظيمية الواسعة. كلا، لا يفوت الأوان أبدا للتنظيم. يجب أن نستخدم الحرية التي نحصل عليها بموجب القانون والحرية التي ننتزعها رغم القانون، لتقوية ومضاعفة عدد المنظمات الحزبية على اختلاف أنواعها. ومهما كان مسار الثورة أو نتيجتها، ومهما كانت إمكانية كبحها مبكرا بسبب ظرف أو آخر، فإن جميع مكاسبها الحقيقية لن تصبح آمنة وموثوقة إلا بقدر ما يتم تنظيم البروليتاريا.

إن شعار "تنظموا!"، الذي أراد أتباع الأغلبية إصداره، بصيغته الكاملة، في المؤتمر الثاني، يجب أن يدخل حيز التنفيذ على الفور. وإذا فشلنا في إظهار مبادرة جريئة في إنشاء منظمات جديدة، فسوف يتعين علينا أن نتخلى عن كل الادعاءات بأننا نلعب دور الطليعة، باعتبارها لا أساس لها من الصحة. وإذا توقفنا عاجزين عند العوائق القائمة والأشكال وحدود اللجان والمجموعات والاجتماعات والحلقات، فسوف نثبت فقط عجزنا. آلاف الحلقات تظهر الآن في كل مكان بدون مساعدتنا، بدون أي برنامج أو هدف محدد، فقط تحت تأثير الأحداث. يجب على الاشتراكيين الديمقراطيين أن يجعلوا من مهمتهم إقامة وتعزيز الاتصالات المباشرة مع أكبر عدد ممكن من هذه الحلقات، لمساعدتها، ومنحها فرصة الاستفادة من معارفهم وخبرتهم، وتحفيزها بمبادرتهم الثورية. ودعوا كل تلك الحلقات، باستثناء تلك التي تصرح بأنها ليست اشتراكية ديمقراطية، إما أن تنضم مباشرة إلى الحزب أو تصير متعاطفة معه. وفي الحالة الأخيرة، يجب ألا نطالبها بقبول برنامجنا أو الدخول بالضرورة في علاقات تنظيمية معنا. إن مزاجها الاحتجاجي وتعاطفها مع قضية الاشتراكية الديمقراطية الثورية الأممية يكفي في حد ذاته، بشرط أن يعمل الاشتراكيون الديمقراطيون بفعالية بينها، لكي تتحول حلقات المتعاطفين هذه، تحت تأثير الأحداث، في البداية إلى مساعدين ديمقراطيين ثم، بعد ذلك، إلى أعضاء مقتنعين في حزب الطبقة العاملة الاشتراكي الديمقراطي

هناك جماهير كبيرة، ونحن تنقصنا القوى؛ لقد عبرت هذه الصيغة المتناقضة منذ فترة طويلة عن التناقضات بين الحياة التنظيمية والاحتياجات التنظيمية للحزب الاشتراكي الديمقراطي. واليوم أصبح هذا التناقض أكثر بروزا من أي وقت مضى؛ كثيرا ما نسمع من جميع الجهات نداءات ملحاحة من أجل قوى جديدة، وشكاوى من نقص القوى داخل المنظمات، بينما لدينا في نفس الوقت في كل مكان عروض لا حصر لها من الخدمات، ونمو للقوى الشابة، خاصة بين صفوف الطبقة العاملة. إن المنظم العملي الذي يشكو من نقص عدد الأشخاص في مثل هذه الظروف يصبح ضحية الوهم الذي عانت منه مدام رولاند، عندما كتبت عام 1793، في ذروة الثورة الفرنسية الكبرى، أن فرنسا ليس لديها رجال، وأن هناك فقط أقزام. إن الذين يتحدثون بهذه الطريقة لا يرون الغابة بسبب الأشجار؛ ويعترفون بأن الأحداث أعمتهم، وأنهم ليسوا هم، الثوريون، من يتحكمون في الأحداث بالعقل والعمل، بل الأحداث هي التي تتحكم فيهم وتطغى عليهم. ومن الأفضل لمثل هؤلاء المنظمين أن يتقاعدوا ويتركوا المجال مفتوحا للقوى الشابة التي غالبا ما تعوض بحيويتها افتقارها إلى الخبرة.

لا يوجد نقص في القوى. لم يكن لدى روسيا الثورية قط مثل هذا العدد من الناس كما هو الحال الآن. وأبدا لم تكن الطبقة الثورية في أي وقت مضى في وضع جيد بالنسبة للحلفاء المؤقتين، والأصدقاء الواعين، والمؤيدين اللاواعيين كما هي حال البروليتاريا الروسية اليوم. هناك جماهير واسعة من الناس؛ كل ما نحتاج إليه هو التخلص من الأفكار والمبادئ الذيلية، وإفساح المجال الكامل للمبادرة والمشاريع، و"الخطط" و"التعهدات"، وبالتالي إظهار أنفسنا كممثلين جديرين للطبقة الثورية العظيمة. وعندئذ ستواصل البروليتاريا الروسية كامل الثورة الروسية العظيمة بنفس البطولية التي بدأتها بها.